منطلقات طالب العلم

جمع وترتيب

محمد بن حسين يعقوب

توزيع مكتبة دار التقوى
٦ شارع فايد المنشية الجديدة شبرا الخيمة
ت / ٢٢٢٩٩١٨

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م



﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾

(سورة محمد : آية ١٩)

* إهداء *

إلى روح أبى الحبيب :

الذى حبب إلى طلب العلم

وكان عليه حريصا وبه شغوفا

وإلى أمى الحبيبة :

التى أعانتنى عليه

وثبتتنى به

ثم

إلى كل طالب علم منصف يريد الحق

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله نحمده تعالى ، ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله تعالى فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

ـ أما بعد ـ

***إخوتاه ..**

تجري دموع العين وفي الحشا زفرات حزن تلتطم ، ويكتم المرء وجدا في جوانحه وكيف يكتم ما ليس ينكتم ، فهل للواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أو تأوه ألم ؟ .

فلعمر الله إنما نحن في رزء عظيم ، وخطب أمره جلل جسيم، رزئنا في جبال كانوا على الأرض النجوم في ليل بهيم ، مات **ابن باز** و**الألباني** و**ابن عثيمين** ، عليهم رحمات ربنا الرحيم ، وتقلب بصرك فلا تجد من يدعى لخطب أو يقال : عالم كريم !! فمن ساعتها فتكت بأنفسنا الهموم ، فما في هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم ، وسرطان الجهل في الأمة يسري فما تدري أعرض حادث أم داء قديم ، فلك الله يا أمة محمد عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم .

فمن لنا غيرك يا ربنا ، لا ملجأ منك إلا إليك فارحمنا .

كانوا بحور العلم فيا لحيرة العطشان في وقت الهجير !!

كانوا على ثغور فيا لذلة المظلوم وهو معدوم النصير !!
كانوا منارات فيا لحيرة الشيخ الأصم وحسرة الحدث الضرير !!
كانوا مزن الرحمة فيا لفجأة المكروه في اليوم العبوس القمطرير !!
اللهم إليك نشكو ضعف قوتنا و قلة حيلتنا و هواننا على الناس يا أرحم الراحمين !! إلى من تكلنا ؟! إلى عدو يتجهمنا أم إلى قريب ملكته أمرنا ؟! إن لم يكن بك سخط علينا فلا نبالي ، غير أن عافيتك أوسع لنا ، نعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علينا غضبك ، أو ينزل علينا سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، و لا حول ولا قوة إلا بك .

** *إخوتـــــاه ..*

قال الله تعالى : " **إنما يخشى الله من عباده العلماء** " [فاطر/٢٨]
وقال تعالى : "**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**" [المجادلة /١١]
قال الله تعالى : "**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** " [الزمر/٩]

فالعلماء هم أكثر الناس خشية لله تعالى ، فالعلم عبادة القلب إذا ابتغي به وجه الله تعالى ، فتعلمه لله قربة ، ومدارسته ذكر ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، وبيان سبيل الجنة ، والمؤنس في الوحشة ، والمحدث في الخلوة ، والجليس

في الوحدة ، والصاحب في الغربة ، والدليل على السراء ، والمعين على الضراء ، والزين عند الإخلاء ، والسلاح على الأعداء .

وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار في الدرجات العلى ، ومجالسة الأصفياء في الدنيا ، ومرافقة الأبرار في الآخرة .

وبالعلم توصل الأرحام ، وتفصل الأحكام ، وبه يعرف الحلال والحرام .

وبالعلم يعرف الله ويوحد ، وبالعلم يطاع الله ويعبد .

فخير الدنيا والآخرة مع العلم ، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل .

** *إخوتاه ..*

وإذا كان هذا شأن العلم ، فإن القلب ليتفطر كمدا ويقطر حسرة على عمر الدعوة الذي لم يثمر إلا أعدادا ضئيلة تنحصر على أصابع اليدين من طلبة العلم المجتهدين ، وليس ثم زمان أحرى من هذا الزمان لنعيد فتح " قضية التعلم " **التي باتت من أكثر المزالق التي تزل فيها الأقدام ، فقد غابت** " المنهجية " و" كثرت الدعاوى " و" انتشرت الآراء الباطلة " **وتلك علامة الساعة ؛ فشرطها أن يزداد الجهل ، ويقل العلم .**

ومما زاد الطين بلة أن كثيرا من حملة العلم إلا من رحم الله لم يصونوا العلم وندر العمل به ففقدوا سيما أهل العلم والصلاح وفقدت الأمة الرجل القدوة ، الذي يقود الأمة بعلمه وعمله ، بهديه وسمته وسلوكه ، وأقواله وأفعاله .

: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم ، وأعزوا هذا العلم وصانوه ، وأنزلوه حيث أنزله الله إذا لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وانقاد لهم الناس ، وكانوا لهم تبعا ، ولكنهم أذلوا أنفسهم ، وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ، فهانوا وذلوا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون فأعظم بها من مصيبة !!

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : **"إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا "**[1]

ولقد كثر سواد علماء السوء ، ووسد الأمر إلى غير أهله ، فهان العلم، وازدادت الفتن ، وتوالت المحن .

قال ﷺ : **"سيأتي على الناس سنوات خداعات ، يصدق فيها الكاذب ، ويكذب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويخون فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة .**

قيل: وما الرويبضة ؟!! قال:الرجل التافه يتكلم في أمر العامة .[2]

قال الثوري : كان يقال العالم الفاجر فتنة لكل مفتون .

*****إخوتـــــاه ..***

وليت البلاء وقف عند حد علماء السوء إذا لقلنا : لهم الجهابذة يذبون عن شرع الله تعالى ، ولكن البلية بليتان ، فقد عاد أهل

---

[1] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٨٠) ك العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل ، ومسلم (٢٦٧١) ك العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن .

[2] أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٦) ك الفتن ، باب شدة الزمان ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٦١) .

الصلاح والإيمان ، من الندرة بمكان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ: " **إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا** "[٣]

وفي خلال السنتين الماضيتين فقدت الأمة من خيرة علمائها ما لم تفقده طوال عقود ماضية ، ولم تعد تبصر من الأكابر إلا النادر القليل ، وعاد الأمر برمته بأيدي الأصاغر ، وتلك من علامات الساعة .

عن أبي أمية الجمحي قال : قال رسول الله ﷺ: " **إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر** "[٤]

مات الأكابر : **سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ــ رحمه الله ــ وفضيلة العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ناهيك عن فحول أعلام كفضيلة الشيخ عطية سالم ، وفضيلة الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر ، وفضيلة الشيخ سيد سابق ، وفضيلة الشيخ ابن غضون ، وفضيلة الشيخ مناع القطان ، وفضيلة الشيخ مصطفى الزرقا ، وفضيلة الشيخ حماد الأنصاري ، وفضيلة الشيخ محمد**

---

[٣] متفق عليه ، أخرجه البخاري (١٠٠) ك العلم ، باب كيف يقبض العلم ، ومسلم (٢٦٧٣) ك العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن .

[٤] أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦١) وصححه الألباني في الصحيحة (٦٩٥)

أمان الجامي ، وفضيلة الشيخ عمر فلاتة ، وفضيلة الشـــيخ علـــى الطنطاوي وغيرهم ،

ولم نلبث كثيرا حتى رزئت الأمة في العلم الهمام **فضيلة الشيخ ابـــن عثيمين** عليه رحمات الرحمن ، فاليوم تقلب بصرك فلا تجد من يقوم على ثغرات كان يسدها هؤلاء الرجال الجبال ، فموت العالم ثلمة فـــي الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار .

قال أيوب : إني لأخبر بموت الرجل من أهل السنة فكأني أفقـــد بعض أعضائي. فاللهم إليك المشتكي .

تعلم ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزيـــة فقد حـــر يموت بفقده بشر كثـــير

***** *إخوتـــــاه ..*

يوم مات الشيخ الألباني قلت : إن القلق على مســـتقبل الأمـــة أعظم من حزننا على موت علمائنا ، فالمصاب الجلل أن تلتفت فـــلا تجد من يسد الثغرة التي كان عليها هؤلاء الفحول ، وأن يصير جـــل عملنا النواح ونترك العمل الإيجابي الجاد .

ولذلك طرحت يوما " **ورقة عمل** " من ست نقاط :

أولا : وجود منهج سلفي فعلي متكامل لطلبة العلم ، منهج واقعـــي ذي مراحل وفق طريقة سلفنا الصالح ، منهج محـــدد واضـــح يعرفه كل أحد ، ويتقيد به .

ثانيـــا : أن يعكف فريق من الدعاة وطلبة العلم المجتـــهدين علـــى شرح هذا المنهج على أشرطة وأسطوانات وكتـــب ، وتبـاع بسعر التكلفة ، وتتولى رعاية ذلك الجمعيات الرسمية ؛ لبـــث وتدريس هذا المنهج .

ثالثـــا: تجييش الأمة بكل فئاتها وطبقاتها لطلب العلم .

رابعـا : تجريد الإخلاص في طلب العلم .

خامسا : الشمولية قبل التخصص ؛ كي لا تفـــرز الأمـــة أنصـاف متعلمين ، ليس لهم من العلم إلا شذرا من هنـــا وهنـــاك ، أو متخصصا لا يدري شيئا عما لم يتخصص فيه .

سادسا : عدم التعصب للآراء والمذاهب والمشايخ .°

وإذا كان ذلك على وجه الإجمال ، فلعلي في هـــذه الرســالة ــ أسأل الله أن يكتب الله لها القبول ــ أعيد ما أجملت ثم بمزيد بيـــان ، والله المستعان .

*** *إخوتـــــاه ..* **

إنني أحاول من خلال هذه الرسالة أن أنبهكم لخطورة " **قضيـة التعلم** " فقد بات نوع من الفصام العجيب بين العلم والعمل ، ولم تعـد تألف وجود العالم العامل ، كما كان الأمر من قبـــل ، فقـد غيبـت المفاهيم ، وانطلقت شعارات كـ " **العلم للعلم** " و" **العلـــم المدنـــي والعلم الشرعي** " ونحو ذلك مما يدندن به أعداء هذه الأمـــة لسـلب

° مجلة التوحيد عدد شعبان ١٤٢٠هـ بعنوان " مرثية الحيارى "

هويتها ، بمسخ أصولها وقواعدها الركينة ، فالعلم والعمل عندنا وجهان لعملة واحدة ، لا فصام بينهما البتة ، فالعلم عندنا ليس ترفا معرفيا ، ولا تطلعا فلسفيا ، ولا ينفصل عن عقيدة التوحيد قيد أنملة ، بل العلم وسيلة للقرب من الله تعالى وتحقيق خشيته في القلوب ، ولا علم دون عمل يثمره ، ولا عمل دون علم يبصره.

قال الحسن : **رأيت أقواما من أصحاب رسول الله يقولون : " من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه ، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق ، فاطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم .**
وكان الرجل يطلب العلم فيهم حتى لا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وزهده ولسانه وبصره [٦]

وقال الخطيب البغدادي : **لا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشا من العلم ، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرا في العمل ، ولكن اجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما.**[٧]

- وبعد -

فإن العلم الذي هو أول ما يعقد عليه الخنصر في الدين واليقين ، ليفسده اضطراب التلقي ؛ لذلك كانت هذه الوصايا لطالب العلم ، نناقش من خلالها " **قضية التعلم** " في وقتنا الراهن ، ونوضح السبل القويمة

---

[٦] سير أعلام النبلاء (٤/٥٨٣)

[٧] اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي بتحقيق الشيخ الألباني ص (١٤) ط المكتب الإسلامي .

لتحصيله ، وذلك من خلال منطلقات عشرة ، هي بمثابـــة الركـــائز والأصول التي ينبني عليها صرح العلم الشامخ ، وأرجـــو مـــن الله العلي القدير أن تكون منارات على الطريق تهدى الشداة السائرين . وقـد استقيتها من نهج سلفنا الأوائل في التلقي ، وأردت بذلك أن أمـــد يـد العون لطلبة العلم كي يستضيئوا بها في دربهم ، فـــإن آمـــال الأمـــة معقودة على هذا الجيل كي ينتج لنا من العلماء والفقهاء ما يعوضنـــا خيرا مما افتقدنا ، فإن قبض العلماء نذير الساعة ، والســـاعة أدهـــى وأمر ، والساعة لا تقوم إلا على أراذل الناس ، نعوذ بالله أن نكـــون منهم .

** *أيهـــا المتفقـــــه ..*

وهذا ندائي معك منذ اللحظة ، فلتكن كما يراد منك ، وتعـــال لنجوب معا في رياض العلم نقتطف منها ما يبلغـــك ســـؤلك وســـؤل أمتك.

وأصدق ــ لا تواضعا بل اعترافا ــ أنني لم يكن لي أدنى فضل في كتابـــة أي كلمة من كل ما ستقرأه ــ أخي وحبيبي في الله ــ ؛ وإنما أنا فقط أقرأ وأكتب ما قرأت ، أجمع وأرتب ، بعد أن طفت في بســـاتين الحكمـــاء ، وحلقت في آفاق العلماء ، وأبحرت في بطون الكتب ، فانتقيت لك زهـــورا طالما استرعت انتباهي فأخذت بلبي ، واخترت لك زادا كان لي غذاء يوما ، فآثرت وما استأثرت ، فكل عملي قطف الزهـــور ، وتعبئـــة الـــزاد ،

والتنسيق بين هذا وذاك ، ثم هو لك معين ، فخذها هنيئا مريئا ، ولتحسن نيتك في الأخذ ، عساك أن ينفعك بها ربك فيرفعك مقاما عليا .

والله المستعان وعليه التكلان ، هو حسبنا ونعم الوكيل ،

لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير

وكتب :

محمد بن حسين آل يعقوب

غفر الله له ولوالديه والمسلمين والمسلمات

وكان ختامه فى ليلة الحادى والعشرين من شهر شوال ١٤٢١ هـ

الحمد لله رب العالمين أولا وآخرا وظاهرا وباطنا

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

فضل العلم وبيان أهميته

اعلم ــ أخي المتفقه وفقني الله وإياك ــ :

أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب ، وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب ، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب .

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل : " **احفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة ، فعالم رباني ، وعالم متعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ، يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على العمل ، والمال ينقصه النفقة ، ومحبة العالم دين يدان بها باكتساب الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد موته وصنيعه ، وصنيعة المال تزول بزوال صاحبه ، مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة** " .

فللعلم مقام عظيم في شريعتنا الغراء ، فأهل العلم هم ورثة الأنبياء ، وفضل العالم على العابد كما بين السماء والأرض .

فعن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال ما أقدمك يا أخي ؟ فقال : حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما جئت لحاجة ؟! قال : لا .

قال : أما قدمت لتجارة ؟! قال : لا .

قال : ما جئت إلا في طلب هذا الحديث .

قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر** "[8]

والعلماء هم أمناء الله على خلقه ، وهذا شرف للعلماء عظيم ، ومحل لهم في الدين خطير ؛ لحفظهم الشريعة من تحريف المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، والرجوع والتعويل في أمر الدين عليهم ، فقد أوجب الحق سبحانه سؤالهم عند الجهل .

قال تعالى : " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل/ ٤٣]

وهم أطباء الناس على الحقيقة ، إذ مرض القلوب أكثر من الأبدان ، فالجهل داء ،

وكما قال رسول الله ﷺ : " **فإنما شفاء العي السؤال** "[9]

---

[8] أخرجه الترمذي (٢٦٨٢) ك العلم عن رسول الله ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٥٩)

[9] أخرجه أبو داود (٣٣٦) ك الطهارة ، باب في المجروح يتيمم ، وابن ماجه (٥٧٢) في المقدمة ، باب في المجروح تصيبه الجنابة بلفظ " أولم يكن شفاء العي السؤال " وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٢) وصحيح أبو داود (٣٢٥)

ومرضى القلوب لا يعرفون مرضهم ، كما أن من ظهر على وجهه برص ولا مرآة له لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره ، والدنيا دار مرض ؛ فكما أنه ليس في بطن الأرض إلا ميت ، فكذلك ليس على ظهرها إلا سقيم ، والأسقام تتفاوت وتتنوع ، والعلم هو ترياقهم فتدبر. قال ﷺ: "**تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**"[١٠]

* *أيها المتفقه ..*

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تفيض بالحث على طلب العلم وبيان أهميته وخطورته فمن ذلك :

١) قال الله تعالى : "**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** " [آل عمران / ١٨]

فأهل العلم هم الثقات العدول الذين استشهد الله بهم على أعظم مشهود، وهو توحيده جل وعلا ، وهذا هو العلم الحقيقي ، العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته ، وموجب ذلك ومقتضاه من الإيمان برسله وكتبه والإيمان بالغيب حتى كأنه مشاهد محسوس .

فهذه المزية الكبرى للعلم وأهله ، أنه يدل على صراط الله المستقيم ، أنه الوسيلة العظمى للقرب من الله تعالى ، وموجب

---

[١٠] أخرجه أبو داود (٣٨٥٥) ك الطب ، باب في الرجل يتداوى ، وابن ماجه (٣٤٣٦) ك الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٠)

لإحاطة محبته بالقلب ، فمتى عرفت الله اجتمع قلبك على محبته وحده جل وعلا ؛ لأن له وحده الأسماء الحسنى والصفات العلا .
فهذا هو العلم وهذه هي ثمرته . رزقنا الله وإياك الشجرة والثمرة إنه جواد كريم

٢) وقد بوب الإمام البخاري بابا فقال: " **باب العلم قبل القول والعمل** " ؛ لقوله تعالى : " **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** " [محمد/١٩]

سئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به " **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** " [محمد/١٩] فأمر بالعمل بعد العلم .

فالعلم مقدم على القول والعمل ، فلا عمل دون علم ، وأول ما ينبغي تعلمه " التوحيد " و "علم التربية " أو ما يسمى بعلم " السلوك " فيعرف الله تعالى ويصحح عقيدته ، ويعرف نفسه وكيف يهذبها ، وأنت تلحظ هذا الارتباط بين العلم بالتوحيد " **فاعلم أنه لا إله إلا الله** " وبين التربية والتزكية التي من ثمارها المراقبة ودوام التوبة " **واستغفر لذنبك** "

٣) والعلم نور يبصر به المرء حقائق الأمور ، وليس البصر بصر العين ، ولكن بصر القلوب ، " **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** " [الحج/٤٦] ؛ ولذلك جعل الله الناس على قسمين : إما عالم أو أعمى فقال الله تعالى : " **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** " [الرعد/١٩] .

ولذلك عبر الله تعالى بفعل " رأى " دلالة على العلم في قوله تعالى : " ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق " [سبأ /٦] فلم يقل : " ويعلم " وهذا ــ والله أعلم ــ إشارة إلى العلم وأثره في القلوب ، التي صارت به تبصر وترى الحق ، ولا يلتبس عليها بالباطل .

وهذا واضح في حديث رسول الله ﷺ تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والاخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه "[11]

٤) والعلم يورث الخشية

قال الله تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " [فاطر/٢٨]

وقال تعالى : " إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا " [الإسراء /١٠٧-١٠٩]

٥) وقد مدح الله أهل العلم وأثنى عليهم ، فجعل كتابه آيات بينات في صدورهم ، به تنشرح وتفرح وتسعد .

---

[11] أخرجه مسلم (١٤٤) ك الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وإنه يأرز بين المسجدين.

قال الله تعالى : " **بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** " [العنكبوت/٤٩]

٦) وقد أمرنا الله تعالى بالاستزادة من العلم وكفى بها من منقبة عظيمة للعلم .

قال الله تعالى : " **وقل ربّ زدني علما** " [طه/ ١١٤]

قال القرطبي : فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم.

٧) والعلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم أهل الذكر ، الذين أمر الناس بسؤالهم عن عدم العلم قال الله تعالى : " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل/٤٣]

٨) وأخبر الله عن رفعة درجة أهل العلم والإيمان خاصة .

قال تعالى : " **يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** " [المجادلة /١١]

٩) والعلم أفضل الجهاد ، إذ من الجهاد جهاد بالحجة والبيان ، وهذا جهاد الأئمة من ورثة الأنبياء ، وهو أعظم منفعة من الجهاد باليد واللسان ، لشدة مؤنته ، وكثرة العدو فيه .

قال تعالى : " **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا** " [الفرقان / ٥١-٥٢]

يقول ابن القيم : " فهذا جهاد لهم بالقرآن ، وهو أكبر الجهادين ، وهو جهاد المنافقين أيضا ، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر ، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ، ومع هذا فقد قال تعالى : "**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** " ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن .

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ، ودعوة الخلق به إلى الله "[١٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "**من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو في منزلة المجاهد في سبيل الله ، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره** "[١٣].

١٠) ولم يجعل الله التحاسد إلا في أمرين : بذل المال ، وبذل العلم ، وهذا لشرف الصنيعين ، وحث الناس على التنافس في وجوه الخير .

عن عبد الله بن مسعود قال : قال النبي ﷺ : "**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها** "[١٤]

---

[١٢] مفتاح دار السعادة (٧٠/١) .

[١٣] أخرجه ابن ماجه (٢٢٧) في المقدمة ، باب فضل العلماء ، والحث على طلب العلم ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٦)

[١٤] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٧٣) ك العلم ، باب الاغتباط في العلم والحكمة ، ومسلم (٨١٦) ك صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

١١) ولا ينقطع عمل العالم بموته ، بخلاف غيره ممن يعيش ويموت، وكأنه من سقط المتاع ، أما أهل العلم الربانيون الذين ينتفع بعلمهم من بعدهم فهؤلاء يضاعف لهم في الجزاء والأجر شريطة الإخلاص .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** "[١٥]

١٢) وكل ما في الدنيا هالك وإلى زوال ، تتنزل عليه اللعنات ، والمرحوم من ذلك صنفان من الناس : أهل العلم وطلبته ، والعابدون الذاكرون الله كثيرا .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " **ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم** "[١٦]

١٣) وبالعلم يعظم أجر المؤمن ، ويصحح نيته ، فيحسن عمله ، وإذا كان الناس لا يشغفون بالمال عن العلم ، فإن فضل العلم على المال أعظم ، وقد فصل لنا الشرع في هذه القضية ، فقد قسم رسول الله الناس على أصناف أربعة ، جعل الناجين منهم صنفين ، وهما من تلبث بالعلم .

---

[١٥] أخرجه مسلم (١٦٣١) ك الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته .

[١٦] أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) ك الزهد عن رسول الله ، وقال : حسن غريب ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩١)

فعن أبي كبشة الأنماري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " **ثلاثة أقسم عليهن ، وأحدثكم حديثا فاحفظوه .**

قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها .

وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال : إنما الدنيا لأربعة نفر :

عبد رزقه الله مالا وعلما ، فهو يتقي فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علما ، ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالا ، ولم يرزقه علما ، فهو يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا، فهذا بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما ، فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته فوزرهما سواء ."[١٧]

والشاهد هنا أن النبي ﷺ جعل العلم الحقيقي هو العلم الذي يبصر المرء بحقائق الأمور ، فصاحب المال إذا لم يتحل بالعلم فإنه سيسيء التصرف فيه ، فتجده ينفقه على شهوات نفسه ، ولا يعرف شكر هذه النعمة ، ولذلك استحق أن يكون بأخبث المنازل ، والعياذ بالله .

---

[١٧] أخرجه الترمذي (٢٣٢٥) ك الزهد عن رسول الله ، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩٤)

وجعل العالم يعرف قدر المال الحقيقي ، فيم ينفق ؟ فبعلمه نوى نية صالحة فصار بأعلى المنازل ، وإن لم ينفق .

١٤) ومن رزق فقها في الدين فذاك الموفق على الحقيقة ، فالفقه في الدين من أعظم المنن .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : "**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين** "[١٨]

١٥) والعلم مقدم على العبادة ، فإن فضلا في علم خير من فضل في عبادة ، ومن سار في درب العلم سهل عليه طريق الجنة .

أخرج البيهقي في سننه عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " **إن الله أوحى إلي : أنه من سلك مسلكا في طلب العلم سهلت له طريق الجنة ومن سلبت كريمتيه أثبته عليهما الجنة و فضل في علم خير من فضل في عبادة و ملاك الدين الورع** "[١٩]

١٦) ويكفي صاحب العلم فضلا أن الله يسخر له كل شيء ليستغفر له ويدعو له

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " **صاحب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر** "[٢٠]

١٧) وطلبة العلم هم وصية رسول الله ﷺ.

---

[١٨] أخرجه الترمذي (٢٦٤٥) ك العلم عن رسول الله ، باب إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين ، وقال : حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٣٣)

[١٩] أخرجه البيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٢٧)

[٢٠] أخرجه أبو يعلى وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٣)

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

"**سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبا بوصية رسول الله وأقنوهم "**

قلت للحكم : ما أقنوهم ؟ قال : علموهم .[٢١]

١٨) وأهل العلم الذين يبلغون الناس شرع الله تعالى هم أنضر الناس وجوها ، وأشرفهم مقاما ، بدعاء رسول الله ﷺ لهم .

قال ﷺ: " **نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، رب حامل فقه إلى من هو أفقه** "[٢٢]

١٩) ومن شرف العلم وفضله أن الله امتن على أنبيائه ورسله بما آتاهم من العلم ، دلالة على عظم المنة .

فذكر نعمته على نبينا محمد ﷺ فقال الله تعالى : " **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** " [النساء/١١٣]

ووصف خليله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بأنه كان أمة، أي جامعا لصفات الكمال من العلم والعمل .

قال تعالى : " **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه** " [النحل/ ١٢٠-١٢١]

---

[٢١] أخرجه ابن ماجه (٢٤٧) في المقدمة ، باب الوصاة بطلبة العلم ، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٠١)

[٢٢] أخرجه ابن ماجه (٢٣٠) في المقدمة ، باب من بلغ علما ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٨٧)

وقال جل وعلا عن نبيه يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : " **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين**" [يوسف/٢٢]

وقال في كليمه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: " **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين** " [القصص/١١٤]

وقال في حق المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : " **يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل** " [المائدة / ١١٠]

٢٠) قال علي بن أبي طالب : ومن شرف العلم وفضله أن كل من نسب إليه فرح بذلك ، وإن لم يكن من أهله ، وكل من دفع عنه ونسب إلى الجهل عز عليه ونال ذلك من نفسه ، وإن كان جاهلا .

فهذا غيض من فيض في هذا الباب ، وأنصحك بمطالعة كتاب " مفتاح دار السعادة " فقد عقد ابن القيم فيه فصلا ماتعا عن فضل العلم وشرفه ، ناهيك عما سطره ابن عبد البر في " جامع بيان العلم وفضله " فاغتنمهما .

ماذا نعني بالعلم ؟ وكيف يطلب ؟

* * *أيهـا المتفقـــه ..*

حين نقول العلم ، فإنما نريد أن تعلم الأمة ، كل الأمة ، جميع الأمـة ، صغارا وكبارا ، رجالا ونساء ، حكاما ومحكومين ، فكل أفراد الأمة على التعيين عليهم

أن يعرفوا الله : الله جل وعلا الذي يعبدونه ، الله الذي استسلموا لـه بالإسلام ، أن يعرفوا الله. من خلال عقيدة صحيحة صافية سليمة نقية واضحة .

وأن يعرفوا رسوله : فيعرفوه معرفة حقيقية ؛ ليتبعـوه ، وليحبـوه ، وليوالوه ، وليقتدوا ويتأسوا به ، ولا يتركوا شيئا من سـنته وعملـه إلا عملوه.

وأن يعرفوا ما تلزم معرفته من أمر الدنيا والدين إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وللوسائل حكم المقاصد .

قال النبي ﷺ : " **طلب العلم فريضة على كل مسلم** " ــ وفي روايـة "**على كل مؤمن** "[٢٣] ، وتأتي هذه الأهمية بعد قضية الإيمان بـالله عـز وجل، فأول واجب على كل مسلم الإيمان بالله تعالى ، ويليه العلم ؛ لأنـك بالتعلم تصحح إيمانك وعقيدتك ، وتصحح عملك ، فالتعلم هو الوسيلة التي يتمكن بها المكلف من تصحيح إيمانه ، ومن تصحيح عمله .

---

[٢٣] أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤٠/١٠) ، والصغير (١٦/١) ، والخطيب البغدادي فـي تاريخ بغداد (٣٧٥/١٠ ، ٤٢٤/١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣) .

والتعلم له طريقان بحسب طاقة الناس :

١) فمن كان قادرا على تلقى العلم من شيوخه بالجلوس عند ركبهم ، ودراسة العلوم عليهم ، وجب عليه أن يتعلم الحد الواجب من العلوم بهذه الطريقة .

٢) ومن لم يكن قادرا على ذلك فليتعلم بطريقة السؤال ؛ يسأل أهل الذكر وأهل العلم عن المسائل الضرورية التي يصحح بها عمله ، ويصحح بها إيمانه..

قال الله تعالى : " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل /٤٣]
وقال ﷺ" **فإنما شفاء العي السؤال** " [٢٤]

وقد سلك أصحاب رسول الله ﷺ كلا المسلكين ، كل على قدر طاقته ، وعلى قدر إمكاناته ، فالمهاجرون والأنصار الذين كانوا معه في المدينة النبوية المباركة أكثرهم تلقوا العلم من فم رسول الله ﷺ، ومن لم يسمعه من فمه ﷺ يسمعه عمن سمعه منه ﷺ ، وكانوا يتناوبون على سماع العلم منه ﷺ .

في الصحيحين عن عبد الله بن عباس عن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال : **كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ،**

---

[٢٤] تقدم تخريجه قريبا .

ينزل يوما ، وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك .."[٢٥]

وكثير من المسلمين في عهده الذين لم يستطيعوا التعلم بهذه الطريقة تلقوه بطريق السؤال ، كانوا يأتون رسول الله ﷺ من كل حدب وصوب يسألون عن الضروري من أمور دينهم ، فيجيبهم ﷺ بأوجز وأبلغ عبارة ، فيفهمون المراد ، ويرجعون إلى بلادهم وأقوامهم ، يبادرون إلى العمل . فهذا رجل من ثقيف يأتي بعد أن امتن الله على قبيلته فدخلت في الإسلام لكن ذلك كان في فترة متأخرة ، فيرغب في الخير الذي حصله من سبقه ، فيسأل النبي سؤالا جامعا ، ويجيبه النبي بإجابة بليغة وجيزة .

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت : **يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ـ وفي رواية "غيرك" ـ قال : قل آمنت بالله فاستقم "**[٢٦]

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفرحون بمجيء أحد من الأطراف ، خاصة إذا كان من البادية ؛ لأنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن مسائل كان الصحابة يتهيبون من سؤاله ﷺ عنها .

ولذلك قال أنس : كنا نهاب أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، وكان يعجبنا أن يأتيه الرجل من أهل البادية فيسأله ، ونحن نستمع.[٢٧]

---

[٢٥] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٨٩) ك العلم ، باب التناوب في العلم ، ومسلم (١٤٧٩) ك الطلاق ، باب في الإيلاء واعتزال النساء .

[٢٦] أخرجه مسلم (٣٨) ك الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام .

وذلك بعد أن أنزل الله تعالى قوله : " **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم**" [المائدة/١٠١]

بل وحتى النساء كن يحرصن على سؤاله ﷺ، وتعلم أمور الدين منه ﷺ، فكانت المرأة من الصحابيات إذا استحيت أن تسأله مباشرة ، سألته بواسطة بعض أمهات المؤمنين إذا كان الأمر يتعلق بشيء مما يستحي منه النساء ، وأما في غير ذلك فيسألنه ﷺ، ويحرصن على تلقي العلم منه .

في صحيح مسلم عن عائشة أن أسماء ــ رضي الله عنهما ــ سألت النبي ﷺعن غسل المحيض **فقال : تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها ، فتطهر فتحسن الطهور ، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكا شديدًا حتى تبلغ شؤون رأسها ، ثم تصب عليها الماء ، ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها فقالت أسماء : وكيف تطهر بها !! فقال : سبحان الله تطهرين بها .**

فقالت عائشة : كأنها تخفي ذلك تتبعين أثر الدم .

وسألته عن غسل الجنابة فقال : تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها ، ثم تفيض عليها الماء .

---

[٢٧] أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦/٨٠) .

فقالت عائشة نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحيـــاء أن يتفقهن في الدين .[٢٨]

وانظر إلى حرص النساء على تعلم العلم منهﷺ ، جاءته أســـماء بنت يزيد بن السكن رضى الله عنها وهو بين أصحابه فقالت : بأبي أنـت وأمي يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك ، واعلم ــ نفسي لك الفداء ــ أنه ما من امرأة كانت في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هـــذا أو لم تسمع إلا وهي على مثل رأيي ، أن الله بعثـــك إلـــى الرجـــال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، وإنا معشر النســـاء محصـــورات مقصورات قواعد بيوتكم ، ومفضى شهواتكم ، وحاملات أولادكـــم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع ، والجماعـــات ، وعيـــادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل مـــن ذلـــك الجهاد في سبيل الله ، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمـــرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الخير يا رسول الله ؟!!

فالتفت النبي ﷺإلى أصحابه بوجهه كله ثم قال : **سمعتم مقالـــة امرأة قط أحسن من مساءلتها عن أمر دينها من هذه !!**

قالوا : يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلـــى مثـــل هـــذا . فالتفت النبي ﷺإليها ، ثم قال: **انصرفي أيتها المرأة ، واعلمي مـــن**

---

[٢٨] أخرجه مسلم (٣٣٢) ك الحيض ، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيضة فرصة من مسك .

ورائك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها مرضاتـــه ، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله .

قال : فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشارا .[٢٩]

فهذه طريقتهم في طلب العلم وحرصهم عليه وحسن ســـؤالهم عن شئونهم الحقيقية ، وتوصيفهم الصحيح لواقعهم بعد فهمهم الدين ، فلم يكونوا يفترضون الأمثلة ، ولا يطرحون الأمثلة للـــترف العلمـــي والفكري ، فتعلموا ونقلوا الدين بأمانة ، فوصلنا الدين مـــن خـــلال هؤلاء الصحابة العلماء الأجلاء كاملا مكملا ، فلا تجد ثغرة في ديننـــا ولا مسألة إلا وعندك منها علما ، فجزى الله رسوله ﷺ عنا وعن أمـــة الإسلام خير الجزاء ، وجزى صحابته خير الجزاء ، وإنما أعرضـــوا عما لا ينفع ، وهذا ما علمه لهم رسول الله ﷺ: لما جاءه رجل يقول: متى الساعة ؟ قال : وماذا أعددت لها .

فأحاله على ما ينفع ، ودله على أن يسأل عما يفيده في دينـــه ، وينفعه في آخرته ، فأين اليوم أنت ـــ أخي طالب العلم ـــ من هؤلاء، وكيف تطلب ؟ وعم تسأل ؟ وفيم تبحث ؟!!!

ـــ إخـــوتـــاه أحبتي فـــي اللـــه ـــ

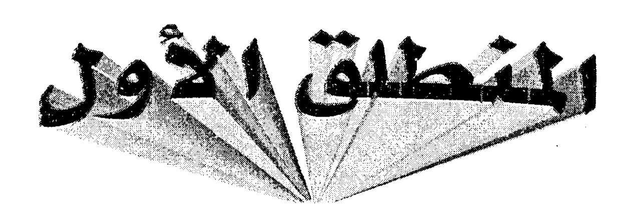
إن قضية التعلم اليوم ، قد دخلها دخن كثير ، وشـــابتها شـــوائب كثيرة ، ما بين خرافات موروثة من التاريخ ، نقلها أهل الزيغ والعنـــاد لا أهل العلم المتخصصون ، وما بين انحرافات صنعتها أصابع معـاصرة ،

---

[٢٩] أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٦٣/٧-٣٦٤) ، (٦٦/٢٩) .

أصابع مشبوهة ، غير مخلصة ، لها أغراض مريبة ، فما بين الخرافات الموروثة من ركام التاريخ ، وما بين انحرافات المعاصرين وقع المتفقهون في تعب وحيرة ، إذ بغيتهم وغايتهم معرفة الله عز وجل ، وعبادته بما شرع على لسان رسوله . هذه يجب أن تكون غاية كل مسلم يريد التفقه ،. ولكن الطريق فيه كثير من المكاره والعقبات ، خاصة بعد أن دخلها هذا الدخن في عصرنا الحاضر .

فهناك حاجة ماسة للمتفقهين إلى معرفة معالم الطريق الصحيح للتفقه في دين الله عز وجل .فهاك عشرة منطلقات على طريق التعلم عسى أن تكون ومضات تضئ طريق الطلب ، أو علامات تصحح السير .



البواعث البواعث..

. النيات النيات.. .

الإخلاص الإخلاص ..

فإن عليكم من الله عينا ناظرة.

المنطلق الأول

(الإخلاص وصدق النية)

قال تعالى : " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء " [البينة/٥]

وقال" : ﷺ بشر هذه الأمة بالسناء والتمكين في البلاد ، والنصر والرفعة في الدين ، ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب [٣٠]

فانظر – أخي في الله وحبيبي – إلى هذا الربط الخطير بين التمكين والإخلاص فبه تعلم ما سبب تأخر التمكين .

إن من أخطر الأسباب التي تحول بين الأمة وبين التمكين في هذا العصر الذي يعاني فيه المسلمون من الهوان : " **فساد النية** "

يا أيها العامل لنصر الدين ، الآمل حصول التمكين ، أخلص النية لله تعالى ، وإلا فالنار النار.

* * *أيها المتفقه ...*

لماذا نتعلم ؟ لماذا نتفقه ؟ لماذا نطلب العلم ؟

قال: ﷺ " من طلب العلم ليباهي به العلماء ، ويماري به السفهاء ، أو ليصرف وجوه الناس إليه فهو في النار " [٣١].

---

[٣٠] أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٤/٥) ، وابن حبان (١٣٢/٢) برقم (٤٠٥) ، والحاكم في المستدرك (٣٤٦/٤) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٨٢٥) .

[٣١] أخرجه ابن ماجة (٢٥٣) في المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٨).

فهذا الحديث الخطير قاضٍ بأنَّ على طالب العلم أن يصحح نيته في طلبه ، فلا يكون إلا لله وحده ، يبتغي عنده الرضوان ، ويرجو لديه الثواب ، لا ليرتفع به في أعين الناس ، ويعلو به فوق أعناقهم ، ويركب به أكتافهم ، ولكن :

كيف يصحح طالب العلم نيته ؟ أو بمعنى آخر ماذا ينوي ؟

قال ابن جماعة : حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به ، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه ، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه ، وعظيم فضله .

قال سفيان الثوري : ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي .

ولا يقصد به الأغراض الدنيوية ؛ من تحصيل الرياسة والجاه والمال ، ومباهاة الأقران ، وتعظيم الناس له ، وتصديره في المجالس ونحو ذلك ، فيستبدل الأدنى بالذي هو خير .

قال أبو يوسف رحمه الله : يا قوم أريدوا بعملكم الله تعالى ، فإني لم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح .

والعلم عبادة من العبادات ، وقربة من القرب ، فإنْ خلصت فيه النية قُبِل وزكًا ، ونمت بركته ، وإن قصد به غير وجه الله تعالى حبط وضاع ، وخسرت صفقته ، وربما تفوته تلك المقاصد ، ولا ينالها فيخيب قصده ، ويضيع سعيه " أهـ[٣٢]

---

[٣٢] تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص (٦٩،٧٠) .

* * *فيا أيها المتفقه :*

أخلص نيتك ، وطهر قلبك من الرياء ، واقصد وجه الله بتوجهك تكسب خيري الدنيا والآخرة ، وإلا فالخسار والدمار وخراب الديار.

عن أبي أمامة قال : قال ﷺ : " **إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، و لا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته** "[٣٣]

انتبه ــ أيها المتفقه ــ فإنك تطلب الخير من الله ، وما عند الله لا ولن ينال إلا بطاعته .

قال ﷺ : " **إنما الأعمال بالنيات** ــ وفي رواية مسلم " **بالنية** " ــ **وإنما لكل امرئ ما نوى**"[٣٤]

فالنية هي الأصل ، والله الحسيب والرقيب ، مطلع على السرائر والضمائر ، لا تخفي عليه خافية ، وكم من عمل يتصور بصورة أعمال الدنيا فيصير بحسن النية من أعمال الآخرة ، وكم من عمل يتصور بصورة أعمال الآخرة فيصير بسوء النية من أعمال الدنيا فلتحذر .

---

[٣٣] أخرجه أبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥) .

[٣٤] متفق عليه . أخرجه البخاري (١) ك بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنية " ، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال .

قال عبد الله الأنطاكي : من طلب الإخلاص في أعماله الظاهرة ، وهو يلاحظ الخلق بقلبه ، فقد رام المحال ؛ لأنَّ الإخلاص ماء القلب الذي به حياته ، والرياء يميته .

فلابد إذاً للنجاة في الآخرة ، وللانتفاع بالعلم في الدنيا ، والنفع به ، من الإخلاص ، رزقنا الله وإياكم إياه .

ولكن الإخلاص عزيز .

قال بعض السلف : أعز شئ في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي ، وكأنه ينبت فيه على لون آخر .

وكان من دعائهم : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ثم عدت فيه ، واستغفرك مما جعلته لك على نفسي ثم لم أف لك به ، واستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت .

ومن أجل تلك العزة والندرة للإخلاص أحذر إخواني .

*** * فيا أيها المتفقه ..***

احذر أن تكون منافقاً ، وأنت لا تشعر ، مرائياً من حيث لا تعلم ، احذر الشهوة الخفية ،فإنَّ كثيراً من طلاب العلم سقطوا لمَّا غفلوا عن تلك الشهوات الخفية ، وهي عند الله من الكبائر ، ولعلها أكبر من الزنى وشرب الخمر ، وهذه الشهوات الخفية تهجم على قلب المتعلم صغيراً كان أو كبيراً ، مشهوراً كان أو مغموراً ، فتفسد عمله ، وتخيِّب قصده ، عافانا الله وإياكم منها ..

إنها شهوة الترفع وحب الظهور ، شهوة كسب الاحترام والتوقير ، شهوة طلب الشهرة وأن يشار إليه بالبنان ، إنها مصيبة اتخاذ العلم وسيلة لنيل غرض من أغراض الدنيا ؛ لبناء الأمجاد الشخصية ، والعلو على الناس ، والاستعظام عليهم ، واحتقار الآخرين وازدرائهم ، وعيبهم والتشنيع عليهم ، شهوة حب التصدر ، وأن ينشغل الناس به ، وينقادوا إليه ، ثم تكون النتيجة : الكبر ، الغرور ، العجب ، الأنانية ، وحب الذات ، وعبادة النفس ، والانتصار لها ، والغضب لها ، وعبادة الهوى .

وهذه ـ والله ـ بليات نعوذ بالله منها ، تسقط بسببها سماء إيمانك على أرضه ، فلا تقوم للقلب قائمة ، ووالله إنَّ القلب ليقشعر من مجرد تعديد هذه الأمراض ، عافانا الله وإياكم منها .

ولعمر الله إنَّ قضية الرياء والشهوة الخفية لهي الطامة الكبرى ، والمصيبة العظمى ، فشوب النيات يورث الرياء والشرك ، والرياء مدخل النفاق ، والمعصية بريد الفسق ، وهما دهليز الكفر .

ولكن تُرى : كيف تدخل هذه الأمراض على القلوب ؟

يقول أبو الحسن الماوردي: " وقلما تجد بالعلم معجباً ، وبما أدرك مفتخراً ، إلا من كان فيه مقلاً مقصراً ؛ لأنه قد يجهل قدره ، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره ، فأما من كان فيه متوجهاً ، ومنه مستكثراً ، فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته ما يصده عن العجب به ".[٣٥]

---

[٣٥] أدب الدنيا والدين ص(٨١) .

وقد قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار: فمن نال شبراً منه شمخ بأنفه ، وظن أنَّه ناله ، ومن نال منه الشبر الثاني صغرت إليه نفسه ، وعلم أن لم ينله ، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحداً أبداً .

هكذا بان لك – **أخي في الله** – السبب الحقيقي لهذا الداء العضال والمرض الخطير ، ويرحم الله علماء السلف فقد كانوا أعلم الناس بأسباب النجاة ، نعم – والله – أُتِيَ المعجب من جهله ، ونعوذ بالله من الجهل وأهله .

وأنا إذ أحذرك من تلك الشهوة الخفية فلابد أن أذكر لك – حبيبي في الله – بعض مظاهرها ؛ لأنها قد تخفي على الكثير إلا من وفقه الله .

<u>فمن مظاهر هذه الشهوة الخفية:</u>

١. <u>أن يشتغل المتفقه بفرض الكفاية عن فرض العين ؛ وأن يشتغل بعلوم الاجتهاد قبل أن يتفقه في دين الله عز وجل .</u>

فتجد المسكين بلا عقيدة صحيحة ، ولا معرفة صادقة بأسماء الله وصفاته، ولا إلمام بتصحيح العبادات الظاهرة والباطنة ، ومع ذلك هو عاكف على علوم الآلات ، ويهجم على النصوص ويستنبط ويرجح بين الأقوال ، ويرد على العلماء ويتعصب ، ويغضب لنفسه ورأيه ، لا لدين الله عز وجل ، فهذا هو الخذلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال في مختصر منهاج القاصدين : " وأنت تجد الفقيه يتكلم في الظهار واللعان والسبق والرمي ، ويفرع التفريعات التي تمضي الدهور ولا يحتاج إلى مسألة منها ، ولا يتكلم في الإخلاص ، ولا

يحذر من الرياء ، وهذا عليه فرض عين ؛ لأنَّ في إهماله هلاكه ، والأول فرض كفاية ، ولو أنَّه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الإخلاص والرياء لم يكن له جواب "[٣٦]

٢) ومن المظاهر كذلك : الجرأة على الفتوى وتعجل التدريس .

قال الله تعالى : " **آلله أذن لكم أم على الله تفترون** " [يونس/٥٩]

ومن تأمل سير السلف يعرف حقًا كيف كان هؤلاء الأكابر أكثر الناس علمًا وورعًا ، فكانوا يهابون مما يقتحمه المتعالمون في هذه الأيام ، ومما يقع فيه علماء السوء من شواذ المسائل .

قال أبو داود في مسائله : ما أحصي ما سمعت أحمد سئل عن كثير مما فيه الاختلاف في العلم فيقول لا أدري .

قال : وسمعته يقول ما رأيت مثل ابن عيينة في الفتوى أحسن فتيا منه ، كان أهون عليه أن يقول لا أدري .

وقال عبد الله ابنه في مسائله سمعت أبي يقول وقال عبد الرحمن بن مهدي سأل رجل من أهل الغرب مالك ابن أنس عن مسألة فقال لا أدري فقال يا أبا عبد الله تقول لا أدري قال نعم فأبلغ من ورائك أني لا أدري .

وقال عبد الله : كنت أسمع أبي كثيرًا يسأل عن المسائل فيقول : لا أدري ، ويقف إذا كانت مسألة فيها اختلاف ، وكثيرا ما كان يقول

[٣٦] مختصر منهاج القاصدين ص (٢٧) .

: سل غيري فإن قيل له من نسأل قال سلوا العلماء ولا يكـاد يسـمي رجلا بعينه.

يقول ابن القيم : وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهـون التسرع في الفتوى ، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره ، فـإذا رأى أنها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها مـن الكتـاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى .[٣٧]

قال عبد الرحمن ابن أبي ليلى : أدركت عشـرين ومائـة مـن أصحاب رسول الله ﷺ، أراه قال : في المسجد ، فمـا كـان منـهم محدث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث ، ولا مفت إلا ود أن أخاه كفـاه الفتيا.

وقال سحنون بن سعيد : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أن الحق كله فيه

فأين هؤلاء الأصاغر المتعالمون من أدب سلفنا الصالح ، ولكنها الشهوة الخفية ، وأين هؤلاء من الشروط والأسس التي وضعها سـلفنا لحفظ جناب الدين من المتفيقهين .

قال الإمام أحمد : " لا ينبغي للرجل أن يعرض نفسه للفتيا حتـى يكون فيه خمس خصال :

---

[٣٧] إعلام الموقعين لابن القيم (٣٤،٣٣/١) ، المدخل لابن بدران (١٢٠/١) ط مؤسسة الرسالة .

إحداها : أن تكون له نية ، أي أن يخلص في ذلك لله تعالى ، ولا يقصد رياسة ولا نحوها ، فإن لم يكن له نية لم يكن عليه نور ، ولا على كلامه نور ، إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

الثانية : أن يكون له حلم ووقار وسكينة ، وإلا لم يتمكن من فعل ما تصدى له من بيان الأحكام الشرعية .

الثالثة : أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته ، وإلا فقد عرض نفسه لعظيم .

الرابعة : الكفاية وإلا أبغضه الناس ، فإنه إذا لم تكن له كفاية احتاج إلى الناس ، وإلى الأخذ مما في أيديهم فيتضررون منه .

الخامسة : معرفة الناس .[٣٨]

ولعلك إن فتشت فيمن حولك عمن تنطبق فيه تلك الأوصاف لا يسعفك عد عشرة على أصابع اليدين ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فحذار حذار من فتنة التصدر ، وطلب الشهرة والجاه ، فإنها ـ لعمر الله ـ قتالة للقلب ، مفسدة له ، دالة على سوء النوايا ، وإنما من

٢. ومن العلامات أنه يشتهي المناظرة ، ويبحث عن الجدل ، ويكثر الكلام ، ويهرف بما لا يعرف

قال الله تعالى : " وكان الإنسان أكثر شيء جدلا " [الكهف /٥٤]

---

[٣٨] كشاف القناع للبهوتي (٦/٢٩٩) ط دار الفكر .

وقال رسول الله ﷺ: **أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه "**[٣٩]

قال الأوزاعي : إذا أراد الله بقوم شرا فتح عليهم الجدل ، ومنعهم العمل.

قال معروف بن فيروز الكرخي : إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شرا فتح له باب الجدل ، وأغلق عنه باب العمل .[٤٠]

وقال بعض السلف : إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته .

وإنما يعطى الجدل الفتانون ، فما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل، وما يشتهي المناظرة إلا الباحثون عن أعراض الدنيا الزائلة ، وإنما كان الرجل من السلف لا يقع في المناظرة إلا اضطرارا ، وما زل من زل في هذا الباب إلا بسبب الرياء والسمعة ، وإنما كان هم الأوائل الأعمال لا الأقوال ، وصار قصارى هم بعضنا الآن الكلام طلبا للظهور .

وقال رسول الله ﷺ: " **بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة،**

---

[٣٩] أخرجه أبو داود (٤٨٠٠) ك الأدب ، باب في حسن الخلق ، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠١٥) .

[٤٠] اقتضاء العلم العمل ص (٧٩) .

وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام، فان من ورائكم أياما الصبر فيهن القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم."[٤١]

وهذه وصية نبوية غالية ، تشير إلى أمراض خطيرة ، وأوبئة دوية : شح مطاع ، هوى متبع ، دنيا مؤثرة ، عجب وإعجاب بالرأي فيا لها من أمراض قتالة ، وأوبئة فتاكة ، تفتك بالدين ، وتقتل الإخلاص ، وإنما المرض العضال الحامل على كل هذا والمؤدي إليه: حب الظهور ، وشهوة التصدر ، والرغبة في الشهرة ، والعلو على الأقران ، فنسأل الله العافية من أمراض القلوب ، ونسأله هو العلي القدير أن يرزقنا الإخلاص ، وأن يجمعنا على الصالحين من عباده في الدنيا والآخرة .

عن عبد الله بن المبارك قال : قيل لحمدون بن أحمد : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟!!

قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق .

قال أبو قلابة لأيوب السختياني : يا أيوب إذا أحدث الله لك علما فأحدث لله عبادة ، ولا يكونن همك أن تحدث به الناس .

قال الحسن البصري : همة العلماء الرعاية ، وهمة السفهاء الرواية . فإذا لم تجد القول موافقا للعمل فاعلم أنه نذير النفاق .

---

[٤١] أخرجه الترمذي (٣٠٥٨) ك التفسير ، باب ومن سورة المائدة ، وقال : حسن غريب .

قال عبد الله بن المعتز : علم المنافق في قوله ، وعلم المؤمن في عمله .

وحكى الذهبي – رحمه الله تعالى – عن أبى الحسن القطان – رحمه الله تعالى – قوله : أُصبت ببصري ، وأظن أني عوقبت بكثرة كلامي أيام الرحلة .

قال الذهبي : " صدق والله ، فقد كانوا مع حسن القصد وصحة النية غالبا يخافون من الكلام ، وإظهار المعرفة واليوم يكثرون الكلام مع نقص العلم ، وسوء القصد ثم إن الله يفضحهم ، ويلوح جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما علموه فنسأل الله التوفيق والإخلاص . أهـ

وعن معمر بن راشد قال : إن الرجل يطلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله.

قال الذهبي – رحمه الله تعالى – : " نعم يطلبه أولاً ، والحامل له حب العلم ، وحب إزالة الجهل عنه وحب الوظائف ، ونحو ذلك ، ولم يكن عَلِم وجوب الإخلاص فيه ، ولا صدق النية ، فإذا علم حاسب نفسه ، وخاف من وبال قصده ، فتجيئه النية الصالحة كلها أو بعضها ، وقد يتوب من نيته الفاسدة ، ويندم ، وعلامة ذلك أنه يُقْصِر من الدعاوى وحب المناظرة ، ومن قَصْدِ التأثير بعلمه ، ويُزْرِي على نفسه ، فإن تَكَثَّر بعلمه ، أو قال أنا أعلمُ من فلان فبعداً له " .

قال الأصبهاني :

اعمل بعلمك ، تغنم أيها الرجل لا ينفع العلم إن لم يحسن العمل

والعلم زين ، وتقى الله زينـــته   والمتقون لهم في علمهم شغل
وحجة الله يا ذا العلم بالـــغــة   لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل
تعلم العلم واعمل ما استطعت به   لا يلهينك عنه اللـــهو والجـــدل

٤) ومن العلامات الولع بالغرائب وتعمد البحث عن المهجور من الأقوال .

فبمجرد أن يتصيد مسألة من هنا أو هناك ، سمعها في مجلس ، أو من شريط ، أو قرأها في صحيفة ، أو في كتاب ، يوالي ويعادى على تلك المسألة ، وأكثر الناس اليوم لا علم له إلا ببعض المسائل ، وليتها بالنافعة ، وإنما شواذ المسائل ، وغريب الآراء ، والمهجور من الأقوال ، وكـــأن الشعار " **خالف تعرف** " فالخلاف عنده أشهى من الاتفاق.

كنت في صحبة شيخنا العلامة ابن عثيميـــن ، وســـألته عـــن مسألة يدندن حولها الكثيرون ، فغضب الشيخ وأخذ يقـــول : مـــن ذا الذي يحيي هذه المسائل بعد أن ماتت ؟ وأخذ يردد ذلك .

فالولع بالغريب والشاذ من الأقوال ، وإحياء المسائل المهجورة والتي حسمها أهل العلم منذ زمن بعيد ، كل ذلك ــ إن كان عن عمــد ــ يدل على خلل واضح ، وسوء قصد بين ،لاسيما إذا كان الأمر زل فيه عالم من العلماء ، ومن هنا حذر أهل العلم من تتبع هذه المســـائل التي أسموها بـــ " الطبوليات " إذ قيل : " **زلة العالم مضـــروب لـــها الطبل** " .[٤٢]

[٤٢] حلية طالب العلم ص (٧) للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد .

٣. ومن المظاهر الشغب على المخالف والزهو بالمتبع.

فإنك تراه يشغب على من خالفه ، ويعاديه ، وينفر منه ، ويفـــرح بالمدح ، ويزهو بكثرة الاتباع ، وبالضد تتميز الأشياء ، وتلك من نتـــاج العصبيات والحزبيات ، لعدم تحقيق عقيدة الولاء والــــبراء فيصـــير الولاء للمتبع ، والبراء للمخالف ، وما كان هذا هـــدي السـلف فـــي الخلاف ، لا سيما في الفروع ، ومن أهم علامات الصادق اســـتواء المدح والذم عنده ، فإن لم يكن كذلك فليتهم نفسه .

قال الإمام الذهبي ــ رحمه الله تعالى ورضى عنه ــ في سير أعلام النبلاء [٤٣]: عن عبد الرحمن بن مهدى عن طالوت : سمعت إبراهيم بـــن أدهم يقول : ما صدق الله عبد أحب الشهرة .

قلت (أي الذهبي رحمه الله): علامة المخلص الذي قـــد يحـــب الشهرة ، ولا يشعر بها ، أنه إذا عوتب في ذلك لا يحرد ، ولا يبرئ نفسه ، بل يعترف ويقول : رحم الله من أهدى إلى عيوبي ، ولا يكن معجبا بنفســه ، لا يشعر بعيوبها ، بل يشعر أنه لا يشعر ، فإن هذا داء مزمن" أهــ

وما أغلاه من كلام ، وصدق من قال : الذهبي ذهبي الكلام ، حقا إنـه كلام أغلى من الذهب، فالمخلص إذا اتهم لم يكابر ، لم يشمخ بأنفه ، ولـــم تأخذه العزة بالإثم فيقول : أنا ..أنا ..أنا ، وإنما يخضع ويذعن ، ويخـــاف

---

[٤٣] سير أعلام النبلاء (٧/٣٩٣)

فائدة : وهذا الكتاب من أفضل كتب التربية بعد كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودائمـــا مـــا ننصح طلبة العلم بالنظر فيه ، وتتبع أخبار السلف ، ومحاولة التأسي بهم .

ويخشى ، ويتهم نفسه ، ويسيء الظن بها ، ويقول : ويلي ، وويل أمي ، إن لم يرحمني ربي .

وعن الفضيل بن عياض قال : يا مسكين ، أنت مسيء وتـرى أنك محسن ، وأنت جاهل وترى أنك عالم ، وتبخل وترى أنك كريم ، وأحمق وترى أنك عاقل ، أجلك قصير ، وأملك طويل .

قال الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ : " قلت : إي والله صدق ، وأنت ظالم وترى أنك مظلوم ، وآكل للحرام وترى أنك متورع ، وفاسق وتعتقد أنك عدل ، وطالب العلم للدنيا وترى أنك تطلبه لله " .[٤٤]

نماذج من أقوال السلف

كان الحسن البصري كثيرا ما يعاتب نفسه ويوبخها فيقول : تتكلمين بكلام الصالحين القانتين العابدين ، وتفعلين فعل الفاسقين المنافقين المرائين ، والله ما هذه صفات المخلصين .

وكان يوسف بن أسباط يقول : ما حاسبت نفسي قط إلا وظهر لي أنني مراء خالص.

كان سفيان الثوري يقول : كل شئ أظهرته من عملي فلا أعده شيئا ؛ لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رآه الناس .

وكان الفضيل بن عياض يقول : إذا كان يسأل الصادقين عن صدقهم ، مثل إسماعيل وعيسى عليهما السلام ، فكيف بالكاذبين أمثالنا ؟!!

---

[٤٤] سير أعلام النبلاء (٤٤٠/٨) .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : من أراد أن يأكل الخبز بالعلم فلتبك عليه البواكي .

وقال الذهبي ــ رحمه الله ــ : ينبغي للعالم أن يتكلم بنية وحسن قصد ، فإن أعجبه كلامه فليصمت ، وإن أعجبه الصمت فلينطق ، ولا يفتر عن محاسبة نفسه فإنها تحب الظهور والثناء .

وقال على بن بكار البصري الزاهد (ت ٢٠٧ هـ) ــ رحمه الله تعالى ــ : "لأن ألقى الشيطان أحب إلي من أن ألقى حذيفة المرعشي ، أخاف أن أتصنع له ، فأسقط من عين الله " .

وفي ترجمة هشام الدستوائي قال عون بن عمارة : سمعت هشاما الدستوائي يقول : والله ما أستطيع أن أقول أني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عز وجل .

قلت ــ أي الذهبي ــ : والله ولا أنا ، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا ، وصاروا أئمة يقتدى بهم ، وطلبه قوم منهم أولا لا لله ، وحصلوه ثم استفاقوا ، وحاسبوا أنفسهم ، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق .

كما قال مجاهد وغيره : طلبنا هذا العلم ، وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية بعد .

وبعضهم يقول : طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله .
فهذا أيضا حسن ، ثم نشروه بنية صالحة .
وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا ، وليثنى عليهم ، فلهم ما نووا .

قال ﷺ: **من غزا ينوي عقالاً فله ما نوى** .[٤٥]

وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم ، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل ، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم ، وولوا به المناصب فظلموا ، وتركوا التقيد بالعلم ، وركبوا الكبائر والفواحش فتبا لهم ، فما هؤلاء بعلماء !! .

وبعضهم لم يتق الله في علمه ؟ بل ركب الحيل ، وأفتى بالرخص ، وروى الشاذ من الأخبار.

وبعضهم اجترأ على الله ، ووضع الأحاديث فهتكه الله ، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار. وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئا كبيرا ، وتضلعوا منه في الجملة ، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل ، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر ، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير ، أوهموا به أنهم علماء فضلاء ، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله ؛ لأنهم ما رأوا شيخا يقتدى به في العلم ، فصاروا همجا رعاعا ، غاية المدرس منهم أن يحصل كتبا مثمنة يخزنها ، وينظر فيها يوما ما ، فيصحف ما يورده ، ولا يقرره ، فنسأل الله النجاة والعفو ، كما قال بعضهم : ما أنا عالم ، ولا رأيت عالما .[٤٦]

---

[٤٥] أخرجه الإمام أحمد (٣١٥/٥) والنسائي (٢٤/٦) والحاكم في المستدرك (١٠٩/٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٠١) .

[٤٦] سير أعلام النبلاء (١٥٢/٧-١٥٣) .

وفي ترجمة ابن جريج : قال الوليد بن مسلم سألت الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج : لمن طلبتم العلم ؟!! كلهم يقول : لنفسي . غير أن ابن جريج فإنه قال : طلبته للناس .

قال الذهبي – رحمه الله – تعليقا على هذا الخبر : " قلت : ما أحسن الصدق ، واليوم تسأل الفقيه الغبي لمن طلبت العلم ؟!! " .
فيبادر ويقول : طلبته لله ، ويكذب إنما طلبه للدنيا ، ويا قلة ما عرف منه " أهـ[٤٧]

رحمك الله أيها الذهبي ، فماذا كنت تقول لو أدركت بعض ما نحن فيه ؟!! وكأني به قد أبصر عيوبنا في هذا الزمان ، من قلة العلماء ، وعدم وجود المربي الأسوة ، فصار فينا هؤلاء الهمج الرعاع ، دينهم الكذب ، فرحماك ربنا ، وعافيتك أوسع لنا.

وفي كتاب المحدث الملهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال:
من خلصت نيته في الحق ، ولو على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله .

حقيقة الإخلاص

بعض الناس يسمع الأمر بالإخلاص ، فيظن أن الإخلاص أن يقول :نويت أتعلم لله ، أو مثل ذلك ، وما مثله إلا كمثل رجل جائع ، وأمامه طعام ، وهو يقول :نويت أن آكل . فهل بهذا يشبع ؟!! الإخلاص شيء آخر ، الإخلاص : انبعاث القلب إلى جهة المطلوب التماسا .

---

[٤٧] سير أعلام النبلاء (٦ / ٣٢٨) .

وقال بعضهم: الإخلاص تغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله تعالى .

وقيل: الإخلاص سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيميله

فالإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ، فمتى أفردت ربك بالطاعة ، ونسيت رؤية الخلق بدوام نظرك إلى الخالق ، فقد تحقق لك الإخلاص . ولكن كيف ؟ هذه هي القضية .

كيف أخلص ؟

إذا سألت كيف أنوي نية صالحة ، وأخلص النية لله تعالى ؟!

فالجواب كما قال أبو حامد الغزالي – رحمه الله تعالى – : " اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حال وصفة للقلب يكتنفها أمران : علم وعمل ، العلم يقدمه ؛ لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه ؛ لأنه ثمرته وفرعه ؛ وذلك لأن كل عمل – أعني كل حركة وسكون اختياري – فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم ، وإرادة ، وقدرة ؛ لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلابد أن يعلم ، ولا يعلم ما لم يرد، فلابد من إرادة ،. ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض ، إما في الحال ، أو في المآل .

فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأمور ، ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأمور ، فيحتاج إلى جلب الموافق الملائم إلى نفسه ، ودفع الضار المنافي عن نفسه ، فاضطر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء

المضر والنافع حتى يجلب هذا ، ويهرب من هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء، ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها ، فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا ، وهي الحواس الظاهرة والباطنة .

فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للغرض ، إما في الحال وإما في المآل ، فالمحرك الأول هو الغرض والباعث ، والغرض الباعث هو : القصد المنوى ، والانبعاث هو **القصد والنية** ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو **العمل** " أهـ

فالإخلاص تنقية القلب من الشوائب قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب ، فلا يكون فيه باعث سواه ، واحذر فإن الشيطان قد يحاصر العبد ، ويحبط له كل عمل ، ولا يكاد يخلص له عمل واحد ، وإذا خلص له عمل واحد فقد ينجو به العبد .

قيل لسهل التستري ـ رحمه الله ـ : أي شيء أشد على النفس ؟!!
قال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب ..

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة ، وتميل إلى البطالة والكسل ، وزينت لها الشهوات ولذلك قيل : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعضهم : إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز .
وقال بعضهم لنفسه : اخلصي تتخلصي .

وقال: طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

كان سفيان الثوري يقول: قالت لي والدتي: يا بني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة .

وقد قيل لذي النون المصري — رحمه الله تعالى — : متى يعلم العبد أنه من المخلصين ؟

فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

وقيل ليحيى بن معاذ — رحمه الله تعالى — : متى يكون العبد مخلصا ؟

فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه .

وللعلامة ابن القيم — رحمه الله تعالى — كلام نفيس في مسألتنا هذه فيقول: " لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء، فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص .

فإن قلت: وما الذي يسهل على ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح ؟

قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتى العبد منها شيئا سواه، فاطلبه من الله .

وأما الزهد في الثناء والمدح ، فيسهله عليك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين ، إلا الله وحده ، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين ، وذمي شين ، فقال : " **ذاك الله عز وجل** ".[٤٨]

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه ، وفي ذم من لا يشينك ذمه ، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه ، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين ، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البر في غير مركب .

قال تعالى : "**فاصبر إنَّ وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** " [الروم/ ٦٠]

وقال تعالى : **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** " [السجدة/٢٤]

زبدة الكلام وخلاصة الختام

بان لنا أن معوقات الإخلاص خمسة ــ عافاك الله منهاــ :

١) الطمع : وعلاجه اليأس مما في أيدي الناس ، وتعلق القلب بالله والرغبة فيما عنده .

٢) حب المدح : وعلاجه علمك أن الممدوح حقا من رضي الله عنه وأحبه، وإن ذمه الناس .

---

[٤٨] أخرجه الترمذي (٣٢٦٨) في أبواب فضائل القرآن ، باب سورة الحجرات ، وقال : حسن غريب ،والإمام احمد في مسنده (٤٨٨/٣) وصححه الألاني في صحيح الترمذي (٢٦٠٥) .

قال بعض السلف : منذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ، ولم أحزن على ذمهم ، فحامدهم مفرط ، وذامهم مفرط .

وقال آخر : لن يكون العبد من المتقين حتى يستوي عنده المادح والذام .

٣) **الرياء :** وطريقة نفي الرياء أن يعلم أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه حقيقة ، فلا يتشاغل بمراعاتهم ، فيتعب نفسه ، ويضر دينه ، ويحبط عمله كله ، ويرتكب سخط الله تعالى ، ويفوت رضاه ، واعلم أن قلب من ترائيه بيد من تعصيه .

٤) **العجب :** وطريقة نفي الإعجاب أن يعلم أن العمل فضل من الله تعالى عليه ، وأنه معه عارية ، فإن لله ما أخذ ، ولله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فينبغي ألا يعجب بشيء لم يخترعه ، وليس ملكا له ، ولا هو على يقين من دوامه .

٥) **احتقار الآخرين واستصغارهم وازدرائهم :** وطريقة نفي الاحتقار التأدب بما أدبنا الله تعالى به . قال تعالى : "**فلا تزكوا أنفسكم**" [النجم/ ٣٢]. وقال تعالى : " **إنَّ أكرمكم عند الله اتقاكم**" [الحجرات/١٣] ، فربما كان هذا الذي يراه دونه أتقى لله تعالى ، وأطهر قلبا ، وأخلص نية ، وأزكى عملا ، ثم إنه لا يعمل ماذا يختم له به .

*** فائدة مهمة**

لا يفوتنا هنا التنبيه على أنه لا ينبغي لطالب العلم أن ينقطع عن الطلب لعدم خلوص نيته ، فإن حسن النية مرجو له ببركة العلم .

قال كثير من السلف : طلبنا العلم لغير الله فأبى إلا أن يكون لله .

وقال غيره : طلبنا العلم وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية بعد .أي فكان عاقبته أن صار لله .

قيل للإمام أحمد بن حنبل : إن قوما يكتبون الحديث ، ولا يرى أثره عليهم ، وليس لهم وقار .

فقال : يؤولون في الحديث إلى خير .

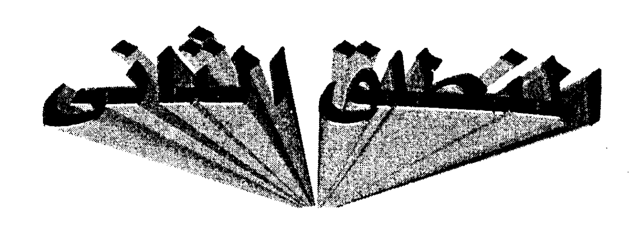
وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا العلم ، وما لنا فيه نية ، ثم جاءت النية والعمل بعد .

فالعبد ينبغي عليه ألا يستسلم ، بل يحاول معالجة نيته ، وإن كانت المعالجة شديدة في أول الأمر.

يقول سفيان الثورى : ما عالجت شيئا أشد على من نيتي

فجاهد ــ أيها المتفقه ــ ، وحسن نيتك ، وحرر الإخلاص ، وجرد التوحيد ، واصدق الله يصدقك ، واحفظ الله يحفظك ، والله معك ، ولن يترك عملك .

فمن أخلص في طلب العلم نيته ، وجدد للصبر عليه عزيمته ، كان جديرا أن ينال منه بغيته .



علو الهمة شرط السلوك
فالعلم لا يعطيك بعضه
حتى تعطيه كلّك.

المنطلق الثاني
(علو الهمة)

*** * أيهـــا المتفقـــه ..***

لابد لكل سالك إلى الله من همة تسيره وترقيه ، ومـــن علـم يبصره ويهديه ، والهمة في مدلولها ومعناها تعنـــي توجـه القلـب وقصده ، وأصحاب الهمم العالية من راموا بكليتهم ســبيل الحـق ، فعكفت قلوبهم على الله ، وجمعوا همتهم عليـــه ، وفرغـوا القلـب لمحبته، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاتـــه ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

يقول ابن القيم :

" وعلو الهمة أن لا تقف دون الله ، ولا تتعوض عنه بشيء ســواه ، ولا ترضى بغيره بدلا منه ، ولا تبيع حظها من الله وقربه ، والأنـس به ، والفرح والسرور والابتهاج به ، بشيء من الحظوظ الخسيســة الفانية ، فالهمة العالية على الهمم كالطائر العالي علـى الطيـور، لا يرضى بمساقطهم ، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم فإن الهمـة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها ، وكلمـا نزلـت قصدتـها الآفات من كل مكان ، فإن الآفات قواطع وجواذب ، وهـي لا تعلـو إلى المكان العالي فتجتذب منه ، وإنما تجتذب من المكان الســافل ، فعلو همة المرء عنوان فلاحه ، وسفول همته عنوان حرمانه ".[٤٩]

---

[٤٩] مدارج السالكين (٣/١٧١-١٧٢) .

وأنت ـــ أيها المتفقه ـــ لابد لك من التعالي عن سفاسف الأمور ، وأخذ الأهبة ، والتحلي بإرادة لا يفلها الحديد ، فأنت مقدم على أمر عظيم حاله ، خطير شأنه ، أنت مقدم لوراثة الأنبياء ، والارتقاء لمراتب الأولياء الأصفياء ، فلا يصلح لصاحب هذه المنزلة أن يحوم حول حطام الدنيا الزائف ، ويجول قلبه في خيالات المحال والبهتان ، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب به كما تتلاعب الكلاب بالجيفة ، فهذه بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق .

فأصحاب الهمم السفلية تراهم يتكالبون على الحظوظ الفانية ، من الجاه والسلطان، وحب الرياسة ، والتطواف في البلدان لجمع الأموال والأثمان ، أو الظفر بامرأة ، ويظل مشغول القلب بأمانيه الزائفة ، وتراه حائما في الأرض حيران يتمثل صورة مطلوبة في نفسه ، وقد التذ بالظفر بها ، فبينما هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير .

أما أصحاب الهمم العالية فيخبرك ابن القيم بحالهم يقول : وصاحب الهمة العالية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان ، والعمل الذي يقربه إلى الله ، ويدنيه من جواره ، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة ، وأماني أولئك خدع وغرور .[٥٠]

---

[٥٠] المدارج (١/٤٥٧-٤٥٨) بتصرف يسير .

* * *أيهـــا المتفقـــه ..*

العلم صناعة القلب وشغله ، فما لم تتفرغ لصناعته ، وشغله لم تنله، والقلب له وجهة واحدة ، فإذا وجهت إلى اللذات والشهوات ، انصرفت عن العلم ، ومن لم يغلب لذة إدراك العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه : لم ينل درجة العلم أبدا ، فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في إدراكه فإنه يرجى له أن يكون من جملة أهله .

علامات الهمة العالية

ولعلو الهمة علامات ، فنقب عنها في نفسك ، وتحل بها تفز بمرادك ، فأول ذلك :

١) طلب المعالي من الأمور .

يقول ابن الجوزي : " غير أن للطالب المرزوق علامة ، وهو أن يكون مرزوقا علو الهمة ، وهذه الهمة تولد مع الطفل ، فتراه من زمن طفولته يطلب معالي الأمور ، كما يروى أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر ، فكان النبي ﷺ يأتي وهو طفل فيجلس عليه ، فيقول عبد المطلب: إن لابني هذا شأنا.

فلابد لك من أنفة من كل خسيس تافه ، تبرأ بنفسك أن تخوض فيه ككل ناعق ، ترى الأمور على حقائقها ، فكل ما كان لله يعلق قلبك به، فلا تنظر لأدنى بل اربط قلبك بسبب إلى السماء ، لا ترضى

بالدونية .قال ﷺ: " **إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، و يحب معالي الأخلاق ، و يكره سفسافها** "[٥١]

٢) ومن علامات الهمة العالية " الحرص " فاحرص على الطلب فإنه من أعظم القرب .

قال ﷺ: " **احرص على ما ينفعك** "[٥٢]

وأعظم ما تحرص عليه وتجود بنفسك لأجله : " **طلب العلم** " ، والحرص أمارة تعظيم القلب ، ولذلك أنصحك باستفراغ الوسع في "**طلب العلم** " .

قال الإمام النووي في وصيته لطالب العلم : " ينبغي أن يكون حريصا على التعلم ، مواظبا عليه في جميع أوقاته ، ليلا ونهارا ، وسفرا وحضرا ، ولا يذهب من أوقاته شيئا في غير العلم إلا بقدر الضرورة لأكل ونوم قدرا لابد له منه ونحوهما ، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل ، وشبه ذلك من الضروريات ، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوتها "[٥٣]

وسأضرب لك الأمثال ؛ لتستنفر همتك فتعلو من حضيض الدنايا الدنيوية ، إلى قمم المنن الإلهية ، فقد كان سلفنا ــ رحمهم الله ــ يحرصون على العلم وجمعه حرصا ليس له نظير .

---

[٥١] أخرجه الطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٤٣) .

[٥٢] جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٦٦٤) ك البر والصلة والآداب ، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله.

[٥٣] المجموع شرح المهذب (٣٧/١) ط دار الفكر .

قال ابن أبي حاتم : سمعت المزني يقول : قيل للشافعي كيف شهوتك للعلم؟

قال : أسمع بالحرف ــ أي بالكلمة ــ مما لم أسمعه ، فتود أعضائي أن لها سمعا تتنعم به ، مثل ما تنعمت به الأذنان.

فقيل له : كيف حرصك عليه ؟ قال : حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال .

فقيل له : فكيف طلبك له ؟ قال : طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره.

وقد كان ابن عباس ﷺ يأتي أبواب الصحابة في حر الظهيرة يسألهم عن الحديث.

فروى الخطيب البغدادى وابن عبد البر عن ابن عباس ﷺ أنه قال : " إن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتى بابه ، وهو قائل ، فأتوسد ردائي على بابه ، تسفي الريح على من التراب ، فيخرج فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جاء بك ؟!! ألا أرسلت إلي فآتيك ؟ فأقول : أنا أحق أن آتيك ، فأسأله عن الحديث " .

وهذا ابن معين ــ رحمه الله تعالى ــ خلف له أبوه ألف ألف درهم، فأنفقها كلها على تحصيل الحديث حتى لم يبق له نعل يلبسه ، وكان حريصا على لقاء الشيوخ والسماع منهم خشية أن يفوتوه..

قال عبد بن حميد : سألني يحيى بن معين عن حديث أول ما جلس إلي ، فقلت : حدثنا حماد بن سلمة .فقال لو كان من كتابك ، فقمت لأخرج

كتابي ، فقبض على ثوبي ، ثم قال : أمله علي ، فإني أخاف أن لا ألقاك ، فأمليته عليه ، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه .

ومن أئمة التابعين مكحول الشامي (ت ١١٢ هـ) ـ رحمه الله ـ يقول : أعتقت بمصر فلم أدع بها علما إلا حويته فيما أرى ، ثم أتيت العراق ، ثم المدينة فلم أدع بهما علما إلا حويته فيما أرى ، ثم أتيت الشام فغربلتها.

يا سبحان الله ، انظر إلى علو الهمة ، والطواف بالبلاد والتجوال ، وجمع العلم وإحرازه ، ويا لعجبي من " **فغربلتها** " !!

وقد بلغ حرصهم على الطلب أن أحدهم كان ينزل به الهم والحزن ، ويصيبه المرض ، إذا فاته شيء من العلم .

فقد ذكروا حديثا لشعبة لم يسمعه ، فجعل يقول : " **واحزناه !!** " وكان يقول : إني لأذكر الحديث يفوتني فأمرض .

فما يحزن القلب إلا إذا فاته عظيم عنده ، محبوب لديه ، لما جاء إخوة يوسف ليأخذوه ليلعب قال أبوهم : "**إني ليحزنني أن تذهبوا به**" [يوسف / ١٣] فكذلك كل محبوب يحزن القلب لفراقه ، فإذا فاتك من العلم شيء فلم تحزن لفواته فاتهم نيتك ، واعلم أن بالقلب من العلائق ما قد حال بينك وبين أبواب العلم .

*** * أيها المتفقه :***

أين حرصك على طلب العلم ، وصبرك على تحصيله ، وإن كلفك ذلك الغالي والنفيس ، أين تبكيرك لمجالس العلم ؟ تالله إنك ترى

من يبكر لحضور درس قبل وقته بساعة أو ساعتين يظـــل يراشـــقك بنظراته ممتنا عليك أنه أتى مبكرا لحضور الدرس ، وما كـــان هـــذا حال سلفنا .

هذا جعفر بن درستويه يقول : كنا نأخذ المجلس فـــي مجلـــس علي بن المديني وقت العصر ، اليوم لمجلس غد ، فنقعد طول الليل ، مخافة أن لا نلحق من الغد موضعا نسمع فيه .

<u>٣) ومن علامات علو الهمة : بذل الغالي والنفيس .</u>

**** * أيهـــا المتفقـــه ..***

من خطب الحسناء لم يغله المهر ، وأنت ــ تـــالله ــ طـــالب لنعيم الدنيا والآخرة فلا تكل ولا تمل فدونك رياحين الجنـــة ، " **مـــن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة** "[٥٤]

يقول ابن الجوزى : " تأملت عجبا ، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ، ويكثر التعب في تحصيله، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار ، وهجر اللذات والراحة ، حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهي الهريسة ولا أقدر ، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس...".أهـــ

ولذلك قال ابن القيم ــ رحمه الله تعالى ــ : " وأما سعادة العلم فـــلا يورثك إياها إلا بذل الوسع ، وصدق الطلب ، وصحة النية "[٥٥]

---

[٥٤] أخرجه مسلم (٢٦٩٩) ك الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلـى الذكر.

فالمكارم منوطة بالمكاره ، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة ، ولا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد .

قال مسلم في صحيحه: قال يحيى بن كثير : " لا ينال العلم براحة الجسم ".

وقد قيل : من طلب الراحة ترك الراحة .

يقول الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ : " حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار منه ، والصبر على كل عارض دون طلبه ، وإخلاص النية لله تعالى في إدراكه نصا واستنباطا ، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه ".

* * *أيها المتفقه ..*

اعلم أن علوم الإسلام العظيمة لم تدون على ضفاف الأنهار ، وتحت ظلال الأشجار والأثمار ، وإنما دونت باللحم والدم ، وظمأ الهواجر ، وسهر الليالي على السراج الذي لا يكاد يضيء نفسه ، وفي ظل العرى والجوع وبيع الثياب ، وانقطاع النفقة في بلد الاغتراب ، والرحلة المتواصلة الملاحقة ، والمشاق الناصبة المتعانقة ، والصبر على أهوال الأسفار ، وملاقاة الخطوب والأخطار ، والتيه في البيد ، والغرق في البحار ، ولفقد الكتب العزيزة الغالية والأسفار ، وحلول الأمراض والأسقام، مع البعد عن الأهل والزوجة والأولاد والدار ، ومع فرقة الأقارب والأحباب والأصحاب وفقد الاستقرار ، فما أثر كل ذلك في أمانة

°° مفتاح دار السعادة (١٠٨/١) ط دار الكتب العلمية .

علم أهلها ، وما نقص من متانة دينهم ، وما وهن من قوة شكيمتهم ، ومـــا خضعتهم الضائقة الخانقة مع قوتها إلى قبول الذل والهوان .

علو همة السلف في الرحلة في طلب العلم[٥٦]

ومن تمثل سير سلفنا الصالح ، ونظر في معاناتهم في طلـــب العلم هانت عليه كل شدة ، واحتقر نفسه أمامهم ، فقـد كـابدوا مـــن الصعاب ما يفوق التخيل ، وتركوا البلاد والأولاد وهجـروا اللـذات والشهوات ، وجابوا مشارق الأرض ومغاربها ســعيا وراء حديـث واحد ، أو لقاء شيخ أو معرفة مسألة ، وأنت ــ اليوم ــ تجزع مـــن قراءة ساعة ، وتتكاسل عن سبر صفحات قليلة ، وتتوافر لـك سـبل المعرفة فما تمد لها يدا ، فحالك ــ تالله ــ حال عجيبة ، فانظر إلـــى هؤلاء الأفذاذ كيف طلبوا العلم عساك تنتفع بذلك .

قيل للإمام أحمد : رجل يطلب العلم يلزم رجلا عنده علم كثـــير أو يرحل ؟

قال : يرحل ، يكتب عن علماء الأمصار ، فيشام النـــاس ، ويتعلـم منهم .

وقيل له مرة : أيرحل الرجل في طلب العلم ؟

فقال : بلى والله شديدا ، لقد كان علقمة بن قيس النخعي ، والأســود بن يزيد النخعي ، ــ وهما من أهل الكوفة بالعراق ــ يبلغهما الحديث

---

[٥٦] وقد صنف كثير من أهل العلم في أهمية الرحلة منها " كتاب الرحلة " للخطيب البغدادي ، يقول الشيخ أبو غده عنه : وكتاب الرحلة للخطيب كتاب نافع مهماز للمتخلفين عن الرحلة ، فاقرأه لعلك ترحل . [صفحات من صبر العلماء ص ٤٤]

عن عمر فلا يقنعهما حتى يخرجا إليه ــ إلــى المدينــة المنــورة ــ فيسمعانه منه "

قال ابن خلدون في المقدمة : " إن الرحلة في طلــب العلــوم ولقاء المشيخة : مزيد كمال في التعليم ، والسبب في ذلك أن البشــر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضــائل ، تارة : علما وتعليما ولقاء . وتارة : محاكاة وتلقينا بالمباشرة . إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقيــن ، أشــد اســتحكاما وأقــوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورســوخها ــ وتفتحها ــ .

والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة علــى المتعلــم ، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلــك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين .

فلقاء أهل العلوم ، وتعدد المشايخ : يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، ويعلــم أنــها أنحاء تعليم وطرق توصيل ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاســتحكام في الملكات ، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها ، مع تقوية ملكتــه بالمباشرة والتلقين ، وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعــهم ، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية .

فالرحلة لابد منها في طلب العلم ، لاكتساب الفوائد والكمـــال ، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، " **والله يهدي من يشاء إلى صـــراط مستقيم** " [البقرة / ٢١٣][٥٧]

**** * أيهـــا المتفقـــه ..***

شأن الرحلة قديم تليد ، بداية من رحلة نبي الله موسى الكليـــم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، وقد قص الله خبر رحلتـــه في القرآن الكريم ، مع عبده الخضر وما كان في رحلته من العوائـق والغرائب ، فبقيت الرحلة سنة نبوية وشعار طلبة العلم إلى يوم الدين.

وهؤلاء صحابة الرسول منهم من قطع مئات الأميـــال ليلقـــاه ويتثبت من صدق نبوته ، ومنهم من سافر إليه من البـــلاد البعيـــدة ليسأله عن مسألة وقعت له .

فهذا عقبة بن الحارث سافر من مكة إلى المدينة ليلقى رسـول الله ﷺ يسأله عن مسألة رضاع وقعت له .

فعن عقبة بن الحارث أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيـــز، فأتتـــه امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج .

فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني، ولا أخـــبرتني، فركـــب إلـــى رسول الله ﷺبالمدينة فسأله، فقال رسول الله ﷺ: "**كيف وقد قيـل** ؟! " ففارقها عقبة، ونكحت زوجا غيره .[٥٨]

---

[٥٧] المقدمة ص ٥٤٢ ط دار القلم .

[٥٨] أخرجه البخاري (٨٨) ك العلم ، باب الرحلة في المسألة النازلة .

وهذا جابر بن عبد الله ﷺ رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد .

روى البخاري في الأدب المفرد أن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فابتعت بعيرا ، فشددت إليه رحلي شهرا ، حتى قدمت الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فبعثت إليه أن جابرا بالباب فرجع الرسول فقال : جابر بن عبد الله !! فقلت : نعم .

فخرج فاعتنقني ، قلت : حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أموت أو تموت . فذكر الحديث "[٥٩]

ومن نوادر الرحلات

ما صنعه هذا الإمام العظيم الحافظ أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي ـــ رحمه الله ـــ (ت ٢٧٦ هـــ) فقد نقل بعض العلماء من كتاب حفيده قوله : سمعت أبي يقول : رحل أبي من مكة إلى بغداد ، وكان رجلا بغيته ملاقاة أحمد بن حنبل .

قال : فلما قربت بلغتني المحنة ، وأنه ممنوع ، فاغتممت غما شديدا، فاحتللت بغداد ، واكتريت بيتا في فندق ، ثم أتيت الجامع ، وأنا أريد أن أجلس إلى الناس ، فدفعت إلى حلقة نبيلة ، فإذا برجل يتكلم في الرجال ، فقيل لي : هذا يحيى بن معين ، ففرجت لي فرجة ، فقمت

---

[٥٩] أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) باب المعانقة ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٤٦)

إليه ، فقلت : يا أبا زكريا ـ رحمك الله ـ رجل غريب ، ناء عن وطنه ، أردت السؤال فلا تستخفني .

فقال : قل . فسألت عن بعض من لقيته فبعضا زكى ، وبعضا جوح، فسألته عن هشام بن عمار ، فقال لي أبو الوليد : صاحب صلاة دمشق ثقة وفوق الثقة ، لو كان تحت ردائه كبر أو متقلدا كبرا ما ضره شيئا لخيره وفضله .

فصاح أصحاب الحلقة : يكفيك ـ رحمك الله ـ غيرك له سؤال .

فقلت : ـ وأنا واقف على قدم اكشف عن رجل واحد ـ أحمد بن حنبل .

فنظر إلي كالمتعجب فقال لي : ومثلنا نحن نكشف عن أحمد ، ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم .

فخرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل ، فدللت عليه ، فقرعت بابه فخرج إلي فقلت : يا أبا عبد الله ، رجل غريب ، نائي الدار ، هذا أول دخولي هذا البلد ، وأنا طالب حديث ، ومقيد سنة ، ولم تكن رحلتي إلا إليك .

فقال : ادخل الأسطوان ـ يعني به الممر إلى داخل الدار ـ ولا يقع عليك عين . فدخلت فقال لي : وأين موضعك ؟! قلت : المغرب الأقصى . فقال لي : إفريقية ؟ قلت : أبعد من إفريقية ، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية بلدي الأندلس .

قال : إن موضعك لبعيد ، وما كان شيء أحب إلي من أن أحسن عون مثلك على مطلبه ، غير أني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك .

فقلت : بلى قد بلغني ، وأنا قريب من بلدك ، مقبل نحوك .

فقلت له : يا أبا عبد الله ، هذا أول دخولي ، وأنا مجهول العين عندكم ، فان أذنت لي أن آتي كل يوم زي السؤال ، فأقول عند الباب ما يقولونه ، فتخرج إلى هذا الموضع ، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية .

فقال لي : نعم على شرط أن لا تظهر في الحلق ، ولا عند المحدثين.

فقلت : لك شرطك .

فكنت آخذ عصا بيدي ، وألف رأسي بخرقة مدنسة ، وأجعل كاغدي – أي ورقي – ودواتي في كمي ، ثم آتي بابه ، فأصيح : الأجر – رحمك الله – والسؤال هناك كذلك ، فيخرج إلي ويغلق باب الدار ، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر ، فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له ، وولي بعده من كان على مذهب السنة ، فظهر أحمد ، وعلت إمامته ، وكانت تضرب إليه آباط الإبل ، فكان يعرف لي حق صبري ، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي ، ويقص على أصحاب

الحديث قصتي معه ، فكان يناولني الحديث مناولة ، ويقرؤه علـــي ، وأقرؤه عليه .[٦٠]

فهذا خبر من أعجب ما تقرأ ، فهذا العالم الأندلسي رحل مـــن أقصى الغرب إلى أقصى الشرق على قدميه ليلقى الإمام أحمد ، فلمـا وجده محبوسا ممنوعا عن الناس تلطف وتحيل حتى لقيه ، فأخذ العلم عنه، وحفظ له الإمام أحمد صبره في الطلب وقربه منه .

ومن أخبار الرحالة المشائين للطلب

ما ذكره أصحاب التراجم والسير عن فحل ضرغام ، إمام همام ، أعني أباحاتم محمد بن إدريس الرازي (ت ٢٧٧ هـــ) يقــول : أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرســـخ[٦١]، لــم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته ، وأما ما سرت أنا مـــن الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا ــ وذلك في المغرب الأقصى ــ إلى مصر ماشيا ، ومن مصر إلى الرملة ماشيا ، ومـــن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمـــص ، ومـــن حمص إلى إنطاكية ، ومن إنطاكية إلى طرسوس ، ثم رجعـــت مـــن

---

[٦٠] سير أعلام النبلاء (١٣/٢٩٢-٢٩٤) ، وانظر صفحات من صبر العلماء للشيخ أبـــي غـــدة ص (٥٥-٥٨) .

[٦١] الفرسخ نحو خمسة كيلو مترات فانظر ــأعزك الله ــ كم قطع هذا الرجل من المســـافات مشـــيا على الأقدام .

طرسوس إلى حمص ، وكان بقي علي شيء من حديث أبي اليمان فسمعته ، ثم خرجت من حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفي ، كل ذلك ماشيا ، هذا سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة ، أجول سبع سنين ، وخرجت المرة الثانية ـ وكان سني في هذه الرحلة ٤٧ سنة ـ .[٦٢]

فانظر لحال ذلك الرجل العجيب ، كم قطع من المسافات مشيا على الأقدام ، وانظر لحال خروجه في سن السابعة والأربعين ، لتعلم أن العلم لا يتوقف على سن ، بل العلم يطلب من المهد إلى اللحد .

ومثيله هذا الحافظ الجوال ابن منده (ت ٣٩٥هـ) بدأ الرحلة في طلب العلم وهو ابن عشرين سنة ، ورجع وهو ابن خمس وستين سنة، ولما عاد إلى وطنه تزوج ـ وهو ابن ٦٥ سنة !! ـ ، ورزق الأولاد ، وحدث بالكثير .

وقد قال ـ رحمه الله ـ : طفت الشرق والغرب مرتين .[٦٣]

رحلة الأهوال .

واسمع عن أبي حاتم الرازي هذا الخبر العجيب ، وانظر إلى أشد ما لاقيت من نصب في تحصيل ، وقارن بين حالك هذه وحال أولئك ؛

[٦٢] مقدمة الجرح والتعديل ص (٣٥٩)
[٦٣] المرجع السابق (١٠٣٢/٣)

لتعرف لماذا حازوا إلى الآن قصب السبق مع كثرة الإمكانيات التـــي أتيحت لنا دونهم .

قال ـــ رحمه الله ـــ : " لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفـوي صرنا إلى الجار وركبنا البحر ، وكنا ثلاثة أنفس : أبو زهير المـــروزى شيخ ، وآخر نيسابوري ، فركبنا البحر ، وكانت الريح في وجوهنا ، فبقينـا في البحر ثلاثة أشهر ، وضاقت صدورنا ، وفني ما كان معنا من الـزاد ، وبقيت بقية ، فخرجنا إلى البر ، فجعلنا نمشي أياما على البر ، حتى فنـي ما كان معنا من الزاد والماء ، فمشينا يوما وليلة ، لم يأكل أحد منا شـيئا ، ولا شربنا ، واليوم الثاني كمثل ، واليوم الثالث كمثل كل يوم ، نمشـي إلى الليل ، فإذا جاء المساء صلينا ، وألقينا بأنفسنا حيث كنا ، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والعياء ، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشى على قدر طاقتنا ، فسقط الشيخ مغشيا عليه ، فجئنا نحركه ، وهو لا يعقـل فتركناه ، ومشينا أنا وصاحبي النيسابورى قـدر فرسـخ أو فرسـخين فضعفت ، وسقطت مغشيا على ومضى صاحبي ، وتركني فلم يزل هـو يمشي إذ أبصر من بعيد قوما قد قربوا سفينتهم من البر ، ونزلوا على بـئر موسى ﷺ ، فلما عاينهم لوح بثوبه إليهم ، فجاؤا معهم المـاء فـي إداوة فسقوه ، وأخذوا بيده.

فقال لهم : رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيا عليهم ، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي ، ففتحت عيني فقلت : اسقني ، فصب من المـاء في ركوة أو مشربة شيئا يسيرا ، وأخذ بيدى ، فقلت : ورائى الشيخ ملقى .

قال : قد ذهب إلى ذاك جماعة . فأخذ بيدى ، وأنا أمشى أجـر رجلـي ، ويسقينا شيئا بعد شيء، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم ، وأتـوا برفيقـي الثالث الشيخ ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة فبقينا أياما حتى رجعـت إلينـا أنفسنا، ثم كتبوا كتابا إلى مدينة يقال لها راية إلى واليهم ، وزودونـا مـن الكعك والسويق والماء ، فلم نزل نمشى حتى نفد ما كان معنا مـن المـاء والسويق والكعك ، فجعلنا نمشى جياعا عطاشا على شط البحر ، حتـى وقعنا إلى سلحفاة ، قد رمى بها البحر مثل الترس ، فعمدنا إلى حجر كبـير فضربنا على ظهر السلحفاة فانفلق ، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنـا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر ، فجعلنا نغـترف مـن ذلـك الأصفر فنتحساه ، حتى سكن الجوع والعطش ، ثم مررنا وتحملنا حتـى دخلنا مدينة الراية ، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم فأنزلنا في داره ، وأحسن إلينا ، وكان يقدم إلينا كل يوم القرع ، ويقول لخادم : هات لهم اليقطيـن المبارك ، فيقدم إلينا ذلك اليقطين من الخبز أيامـا . فقـال واحـد منـا بالفارسية: "ألا تدعو باللحم المشئوم ، وجعل يسمع صاحب الدار .
فقال : أنا أحسن الفارسية ، فإن جدتي كانت هروية . فأتانا بعد ذلك باللحم ، ثم خرجنا من هناك ، وزودنا إلى أن بلغنا مصر " أهـ

*** * أيهـا المتفقـه ..**

يا لها من رحلة الأهوال !! فمتى تنفض عنك تنكب الأطفال ؟! متى تشهر سيفك وتنزل حلبة النزال ؟ لماذا لا تلحق بركب هؤلاء الرجال؟ يا هذا أما ينفك عنك زمان الأحلام والآمال !! متى ترعوي

بمشي الأيام في الآجال ؟ تقول : من ذا ؟! وأقول : الرجال . تقول : كيف ونحن في !! وأقول : بعون ذي الجلال .

إشارات من واقعنا وواقع سلفنا .

ولابد وقد مر الحديث بخبر " **الرحلة** " عند سلفنا من إشارات نقف عندها لتستفيد بها – أيها المتفقه – فمن ذلك :

١) أن تبصر كم من الأوقات والأعمار قضاها هؤلاء في طلب العلم، بعيدين عن الأهل والولد ، والزوجة والبلد ، متفرغين للطلب .

وقارن هذا الحال وصنيع المتعالمين في هذا الزمان ممن ينتسبون إلى العلم ، وجل اهتمامهم التصدر والعلو ، فلا ينبت لهم زرع نافع . فمن لا يعاني ذل التعلم ، ويقضي الأعوام في رعاية بذره فلن يحصد، ومن هنا كره كثير من السلف التصنيف قبل الأربعين ، بل لم يفتوا إلا في سن متأخرة ، حفظا للعلم من أن ينتهك حرمته من ليس له بأهل .

٢) مدى تحملهم للصعاب ، من فقر وشظف العيش ، وصعوبة وسائل السفر، وانظر لتقاعس أبناء عصرنا عن الارتحال ولو بالسيارات التي عادت الآن أسوأ سبل السفر في ظل وجود الطائرات بأنواعها المختلفة ، لتدرك علو هممهم في الصبر والتحمل ، وتعلم غلاء العلم لديهم وعلى قلوبهم ، إذ ركبوا في تحصيله الصعب والذلول ، وقطعوا البراري والقفار ، وامتطوا من أجله المخاطر

والبحار، ولقوا ما لقوا من الشدائد والأهوال ما الله به عليم ، وحسبك من ذلك قصة الإمام أبي حاتم التي مر ذكرها عليك .

٣) صقل تلك المعاناة لنفوسهم ، فعز العلم عندهم ، ورعوه حق رعايته ، ولذلك خرجوا أئمة أحبارا في كل علم من العلوم ، ولم يجد الزمان بأمثالهم ، لما لم يستن الناس بسننهم .

انظر لحال طلبة العلم في عصرنا ممن يدرسون دراسة أكاديمية أو من دونهم ، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ــ رحمه الله ــ :

" فوازن ــ رعاك الله ــ بين الدراسة التي أثمرتها هذه الرحلات التي عركت الطلاب الراحلين عركا طويلا ، وبين دراسة طلاب جامعاتنا اليوم ! يدرسون فيها أربع سنوات ، وأغلبهم يدرسون دراسة صحفية فردية ، لا حضور ولا سماع ، ولا مناقشة ولا اقتناع ، ولا تطاعم في الأخلاق ولا تأسي ، ولا تصحيح لأخطائهم ولا تصويب ولا تشذيب لمسالكهم ، ويتسقطون المباحث المظنونة السؤال من مقرراتهم (المختصرة) ثم يسعون إلى تلخيص تلك المقررات ، ثم يسعون إلى إسقاط البحوث غير الهامة من المقروءات ، بتلطفهم وتملقهم لبعض الأساتذة ، فيجدون ما يسرهم وإن كان يضرهم ، وبذلك يفرحون .

وبعد ذلك يتعالون بضخامة الألقاب ، مع فراغ الوطاب ، ويوسعون الدعاوي العريضة ، ويجهلون العلماء الأصلاء بآرائهم الهشة البتراء ، وينصرون الأقوال الشاذة لتجانسها مع علمهم وفهمهم ،

ويناهضون القواعد المستقرة ، والأصول الراسخة المتوارثة ، ولم يقعدوا مقاعد العلم والعلماء ، ولم يتذوقوا بصارة التحصيل عند القدماء ! ولكنهم عند أنفسهم أعلم من السابقين !!

ويشهد المراقب للحال العلمية اليوم : كثرة متزايدة في الجامعيين والجامعات ، وفقرا متزايدا في العلم وأهله ، وضحالة في الفهم والمعرفة ، ونقصا كبيرا مشهودا في العمل بالعلم ! وهذه مصيبة من أدهى المصائب ! والله المرجو أن يلهم المنوط بهم أمور التعليم في البلاد الإسلامية أن يتبصروا بالأمر ، ويتداركوا هذا الخطر قبل تأصله وإزمانه ، واستفحال آثاره .

يقول : ولا أتحدث طويلا عن المبتعثين والراحلين اليوم من شبابنا ، إلى بلاد الغرب والشرق من بلاد الكفار والأعداء للإسلام وأهله ، فإن الناجي من براثن مكايدهم الخفية والظاهرة في العقيدة والخلق والتفكير والسلوك قليل ، وكم من أبنائنا وشبابنا من وقع في حبائلهم ، وذهب في سبلهم ، ورضيهم قادة وسادة ، ونزع – بالتالي – من ديار الإسلام إليهم ، وتوطن بلادهم مسكنا ودارا ، واختارهم على أهله أهلا وجارا ، وهو يظن بنفسه أنه يحسن صنعا ، نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن الكفر بعد الإيمان "[٦٤]

---

[٦٤] صفحات من صبر العلماء ص ١٠٩-١١٠ ط مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب .

كيفية علو الهمة

فإن قلت : كيف علو الهمة في عصرنا ؟ والمعوقات قد أحاطت بنا فكيف لنا بعلو الهمة ؟ وإذا وجدت الهمة ولم أرزق فما الحيلة ؟

قلت : جوابك حاضر والحمد لله ، فلا تعجل ، اصطبر وتدبر .

يقول ابن القيم : " قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معـــه ، وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكـــون توفيقـــه سبحانه وإعانته ، فالمعونة من الله تنزل علي العباد علي قدر همـــهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم ، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلـك ، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العـــالمين ، يضــع التوفيــق فـــي مواضعه اللائقة به ، والخذلان في مواضعه اللائقة به ، هــو العليــم الحكيم .

وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر ، وإهمـــال الافتقـــار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامـــه بالشــكر ، وصدق الافتقار والدعاء ، وملاك ذلك الصبر ، فإنـــه مـــن الإيمـــان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد " أهـ[٦٥]

---

[٦٥] الفوائد ص (١٨٥) .

فهذه وصايا لتحصيل علو الهمة وحصول التوفيق :

١) اشكر نعمة ربك عليك .

فكم من نعمة وهبها الله لك وأنت لا توافي شكرها ، فلا تصرفها إلى ما خلقت له ، فتمتنع عنك هذه المنن ، كما هو حال الأذكياء وذوي الألباب من الناس ممن يعملون عقولهم فيما لا طائل من ورائه ، ومن الناس من وهبه الله نعمة " الحفظ " فتراه لا يصرفها فيما فيه فلاحها من حفظ القرآن والسنة ومتون العلم ، ومنهم من وهبه الله ملكة الفهم والتدبر فلا تراه يستخدمها في تدبر آي الذكر الحكيم والنصوص الشرعية وفق منهج سلفنا ، وهكذا تجد الناس لا يشكرون الله على نعمائه ، فيمحق الله عنهم تلك النعم .

٢) وصدق الافتقار والدعاء .

كان الرجل من سلفنا الكرام إذا استشكلت عليه مسألة أو غمض عليه أمر من الأمور يسارع بصلاة ركعتين في جوف الليل المظلم يناجي ربه ويسأله أن يبصره بالحق ، يقول : اللهم يا معلم إبراهيم علمني ، ويا مفهم سليمان فهمني ، ويظل هكذا حتى يفتح الله عليه ، ولا مثيل للافتقار في استمطار رحمات الرب تبارك وتعالى ، " **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** .." [التوبة/٦٠]

٣) وملاك الأمر في الصبر ، فصبرا على شدائد الطلب صبرا

** أيهـــا المتفقـــه ..**

فلابد لعلو همة من صبر فبدونه ينقطع بك السبيل ، ولا ترجـع حتى بخفي حنين، ولعمر الله إن شدائد الطلب لهينة يســيرة ، وهـــي أحلى على قلوب المخلصين من لذات الدنيا ومباهجها ؛ ولذلك ابـــن الجوزي يقول : " ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هـو عندي أحلى من العسل ؛ لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمان الصبـــا آخذ معي أرغفة يابسة ، فأخرج في طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلما أكلت لقمة شربت عليها ، وعيـــن همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكـــثرة سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحواله وآدابـــه ، وأحـــوال الصحابـــة وتابعيهم .أهـ[٦٦]

أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ

لابد لك من خليل موافق لا يفارقك في زمان الطلب ، ألا وهو " **الصبر** " فإنه ملاك ذلك الأمر كله ، فيا أقدام الصبر احملي فقد بقـــي القليل .

يقول ابن القيم : " **فإن كان يأجوج الطبع ومأجوج الـــهوى ، قد كانوا في أرض القلوب فأفسدوا فيها ، فأعينوا الملك بقوة يجعـل بينكم وبينهم ردما ، أجمعوا له من العزائم ما يشابه زبر الحديد ، ثم تفكروا فيما أسلفتم ؛ ليثور صعد الأسف فلا يحتاج إلـــى أن يقـــول**

---

[٦٦] صيد الخاطر ص (٢٧٦) ط مكتبة الكليات الأزهرية .

لكم: انفخوا ، شدوا بنيان العزم بهجر المألوفات والعوائد ، وقد استحكم البناء فحينئذ أفرغوا عليه قطر الصبر ، وهكذا بنى الأولياء قبلكم فجاء العدو فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا"[٦٧]

فالصبر خل لطالب العلم إن فارقه استوحش فبي البوادي القفار، وإن لازمه أنس وأدلج ، ولا تستقيم النفوس إلا به إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق ، فإن الله جعل الصبر جوادا لا يكبو، وصارما لا ينبو ، وجندا لا يهزم ، وحصنا لا يهدم ، ولا يثلم ، فهو والنصر أخوان شقيقان ، وهو أنصر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد ، ومحله من الظفر محل الرأس من الجسد .

قال تعالى : " **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** " [السجدة /٢٤]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إنما تنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين .

والصبر خير لصاحبه ألم يقل الله تعالى : " **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** " [النحل /١٢٦]

والصابر ينال خيري الدنيا والآخرة فقد بشره الله تعالى فقال : " **وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه**

---

[٦٧] بدائع الفوائد (٣/٧٥٦)

راجعون أولئك عليهم صلوات مــن ربــهم ورحمــة وأولئــك هــم المهتدون " [البقرة /١٥٥-١٥٧]

قيل للشعبي : من أين لك هذا العلم كله ؟!!

قال : بنفي الاعتماد ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الحمار ، وبكــور كبكور الغراب.

وهذا خيثمة بن سليمان القرشي (ت ٣٤٣هـ) خرج لسماع الحديث من بلدته فركب البحر ، فإذا بقطاع للطريق يطاردونـــهم ويــأخذون مركبهم.

يقول خيثمة : ولما ضربت سكرت ــ يعني أصابته غشية من شدة ألم الضرب ــ ونمت ، فرأيت كأني أنظر إلى الجنـــة ، وعلـــى بابـــها جماعة من الحور العين .

فقالت إحداهن : يا شقي ، أيش فاتك ؟

قال الأخرى : أيش فاته ؟ قالت : لو قتل كان في الجنة مــع الحــور العين .

قالت لها : لأن يرزقه الله الشهادة في عز مــن الإســلام وذل مــن الشرك خير له ، ثم انتبهت .

قال : ورأيت كأن من يقول لي : اقرأ " سورة براءة " فقــرأت إلــى قوله تعالى : "**فسيحوا في الأرض أربعة أشهر** " [التوبة / ٢] . قــال : فعددت من ليلة الرؤيا أربعة أشهر ، ففك الله أسري .[٦٨]

---

[٦٨] تذكرة الحفاظ (٨٥٨/٣)

*** * أيها المتفقه :**

أتراك مضيعا عمرك سدى إن أنفقته في الطلب ؟ أتراك تفوت من الدنيا ما تضن به لأجل العلم ؟ فما تعدل لذات الدنيا ما يجده طالب العلم من النعيم ؟ فالعلم يرفعك أقرب ما تكون إلى رب السماء، والدنيا تشدك إلى درك البلاء ، فاغتنم وقتك في الطلب قبل حسرة الفوت .

ورحم الله ابن الجوزي حين يقول : " ومن أنفق عصر الشباب في العلم ، فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جني ما غرس ، ويلتذ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئا بالإضافة إلى ما يناله من لذات العلم ، هذا مع وجود لذاته في الطلب الذي كان تأمل به إدراك المطلوب ، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها "

ثم قال : " ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا ، وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم ، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه ، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم ، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم ، وما نلته من معرفة العلم لا يقوم .
فقال لي إبليس : ونسيت تعبك وسهرك ؟!

فقلت له : أيها الجاهل ، تقطيع الأيدي لا وقع له ـ أي لا يذكر وليس بشيء ـ عند رؤية " يوسف " ، وما طالت طريق أدت إلى صديق " أهـ

وهذا ـ لعمر الله ـ من الفوائد الجليات لطلب العلم ، ومن صبر ظفر ، " ومن المعلوم أنَّه لابد لنيل كل مرغوب محبوب من تنازل عن مرغوب محبوب دونه ، والعلم مرغوب سامٍ ، ومحبوب غالٍ ، وشرف رفيع ، ومطلب صعب المسالك ، كثير العقبات ، لا يمكن بلوغه إلا بتنازلات كثيرة ، وتضحيات كبيرة ، في المال ، والوقت ، والراحة ، وأنس الأهل والأصحاب ، وسائر المتع المشروعة ، ولهذا قيل : العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك".[٦٩]

**** * فيا أيها المتفقه :***

صبرا على هجر اللذات ، صبرا على ترك المألوفات والعادات ، صبرا على مكابدة الصعوبات ، فإن من وراء ذلك بلوغ الغايات .

قال أسد بن الفرات ـ رحمه الله ـ : أجهدوا أنفسكم ، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، واصبروا على شدته ، فإنكم تنالون به خيري الدنيا والآخرة .

---

[٦٩] صفحات من صبر العلماء ص (١١١) .

كان بعضهم لا ينام الليل في مذاكرة العلم ، وإذا نـــام فعلـــى فراش القلق من اشتغال الذهن .

قال محمد بن أبي حاتم وراق الإمام البخاري ــ رحمه الله ــ : كان أبو عبد الله ــ أي البخاري ــ إذا كنت معه في سفر ، يجمعنـــا بيت واحد إلا في القيظ أحيانا ، فكنت أراه يقوم في ليلة واحدة خمــس عشرة مرة إلى عشرين مرة ، في كل ذلك يأخذ القداحة ، فيـــوري نارا ويسرج ، ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ، ثم يضع رأسه ، وكـان يصلي وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ، وكان لا يوقظني ، في كـــل ما يقوم .

فقلت له : إنك تحمل على نفسك ، في كل هذا ولا توقظني .

قال : أنت شاب ، ولا أحب أن أفسد عليك نومك .

*** * أيهـــا المتفقـــه :***

ما عذرك ؟! بماذا تخادع نفسك ؟ حتام تركـــن إلـــى الدعـــة والبطالة ؟ تستثقل سويعات تقضيها في المذاكرة والطلـــب ــ وأنـــت منعم ــ !! توفرت لك الوسائل وسهلت عليك الصعاب وما زلت تخلد إلى الأرض ، ثم تقول : العلم .. العلم فهيهات هيهات .

قال يحيى بن محمد بن يحيى الذهلي : دخلت على أبي في الصيـــف الصائف وقت القائلة ، وهو في بيت كتبه ، وبين يديـــه الســـراج ــ لظلمة الحجرة التي هو فيها في وسط النهار !! ــ

فقلت : يا أبة ، هذا وقت الصيف ، ودخان هذا السراج بالنهار ـ يضرك ـ ! فلو نفست عن نفسك ؟

فقال لي : يا بني تقول لي هذا ؟!

وأنا مع رسول الله ﷺ ومع أصحابه والتابعين ؟! "

* * *أيها المتفقه :*

أين أنت ممن كان يبيت وأثر الحصير في جنبيه ﷺ ؟

أين أنت ممن كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع خوفا ووجلا ؟ أين أنت ممن عمروا الليالي بطاعة الله ، فمنعهم العلم من النوم ، ولم يلتفتوا إلى زخرف الدنيا الزائل ، فحفظ الله ذكرهم بين الناس إلى يوم يقوم الأشهاد ؟!!

هذا الإمام الطبراني الذي ملأ حديثه البلاد ، وزادت مؤلفاته عن خمس وسبعين مؤلفا ، فسئل مرة عن كثرة حديثه .

فقال : كنت أنام على البواري ـ أي الحصر ـ ثلاثين سنة .[٧٠]

* * *أيها المتفقه :*

اصبر على مضض الإدلاج في السحر ، وفي الرواح إلى الحاجات والبكر ، فإنه قل من جد في أمر يطلبه فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر ، فإن للصبر عاقبة محمودة الأثر .

[٧٠] تذكرة الحفاظ (٩١٢/٣ ، ٩١٥)

قال هارون بن موسى : كنا نختلف إلى أبي علي ــ القالي ــ البغدادي رحمه الله ، وقت إملائه " النوادر " بجامه الزهراء ــ في قرطبة ــ ، ونحن في فصل الربيع .

فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق ، إذ أخذتني سحابة ، فما وصلت إلى مجلسه رحمه الله إلا وقد ابتلت ثيابي كلها ! وحوالي أبي علي أعلام أهل قرطبة ، فأمرني بالدنو منه ، وقال لي : مهلا يا أبا نصر ، لا تأسف على ما عرض لك ، فذا شيء يضمحل عنك بسرعة ، بثياب غيرها تبدلها .

وقال أبو علي : قد عرض لي ما أبقى بجسمي ندوبا تدخل معي في قبري !

ثم قال : كنت أختلف إلى ابن مجاهد ــ رحمه الله ــ ، فأدلجت إليه ــ أي ذهبت إليه من آخر الليل قبل الفجر ــ لأتقرب منه .

فلما انتهيت إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ن ألفيته مغلقا وعسر علي فتحه .

فقلت : سبحان الله ! أبكر هذا البكور ، وأغلب على القرب منه !!

فنظرت إلى سرب ــ حفير تحت الأرض ــ بجنب الدار فاقتحمتُه ، فلما توسطته ضاق بي ، ولم أقدر على الخروج ، ولا على النهوض، فاقتحمته أشد اقتحام ، حتى نفذت بعد أن تخرقت ثيابي واثر السرب في لحمي حتى انكشف عظمي ، ومن الله علي بالخروج ، فوافيت مجلس الشيخ على هذه الحال ، فاين أنت مما عرض لي ؟!! وأنشدنا:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفىومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

* * *أيها المتفقه :*

وصيتي الجامعة لك قول الله تعالى : " **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** " [آل عمران/٢٠٠] فما فلاح في دون تلك الأربع .

" **فاصبر** " مع نفسك فألجمها ، واعلم أن هداها في مخالفتها ، فاصبب صبر الكرام لا صبر اللئام ، ممن يرغمون على الصبر فيتجرعون مرارته في الآجل والعاجل .

" **وصابر**" عدوك ، وليس عدوك من قاتلك ، بل من الأعداء ما يخفى، وشر أعدائك نفسك والشيطان والدنيا والهوى ، وشر أعدائك من ضيع وقتك ، وشغلك عن مطلبك ، فاهجر خلان الدنيا فإنهم يقتلونك من حيث لا تدري .

" ورابط " فالثبات حتى الممات شعارك ، وتجهز دائما لموعودك ، وأعد عدتك ، وكلما استزدت زودت ، فلا تفتر .

و" اتق الله " فالزم تقوى الله تعالى في السر والعلانية ، فدونها تتهتك الآمال ، وتضيع الأعمار ، ويصبح عملك هباءا منثورا .

<u>٤) جمع الهم .</u>

* * *أيهـا المتفقـه ..*

الوصية الرابعة لعلو الهمة " **جمع الهم** " ، ولا ريب أن طاعة الله تعالى تفتقر إلى " **جمع الهم** " ، وأن شتات الهم من أكبر المعوقات عن طلب العلم .

قال ﷺ: " **من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك** "[٧١]

قال ابن الجوزي : وقيل لأبى حنيفة : بم يستعان على حفظ الفقه ؟ قال : بجمع الهم .

وقال حماد بن سلمة: بقلة الغم .

وقال مكحول : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طابت ريحه زاد عقله ، ومن جمع بينهما زادت مروءته .

طالب العلم والزواج

فلابد لطالب العلم من جمع الهم ، ومن ذلك ألا يشغل ذهنه بالزواج ، لاسيما مع ضيق ذات اليد ، فإنه يستتبع من شتات الذهن ما يمنعه عن بلوغ القصد ، وإلا فلا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، كأن يخشى على نفسه الفتنة ، فيتزوج من باب أخف الضررين .

---

[٧١] أخرجه ابن ماجه (٢٥٧) في المقدمة ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٨٩).

قال ابن الجوزي : وأختار للمبتدئ في طلب العلم أن يدافع النكاح مهما أمكن ، فإن أحمد بن حنبل لم يتزوج حتى تمت له أربعون سنة ، وهذا لأجل جمع الهم، فإن غلب عليه الأمر تزوج واجتهد في المدافعة بالفعل ؛ لتتوفر القوة على إعادة العلم ،، ثم لينظر ما يحفظ من العلم ، فإن العمر عزيز ، والعلم غزير " [٧٢]

يقول صاحب مختصر منهاج القاصدين قال : " ينبغي لطالب العلم قطع العلائق الشاغلة ، فإن الفكرة متى توزعت قصرت عن إدراك الحقائق ،، وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء .

فروى عن الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ أنه لم يتزوج إلا بعد الأربعين .. وأهديت إلى أبى بكر الأنباري جارية ، فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة فعزبت عنه ، فقال : أخرجوها إلى النخاس ، فقالت : هل من ذنب ؟ قال : لا ، إلا أن قلبي اشتغل بك ، وما قدر مثلك أن يمنعني علمي" .[٧٣]

يقول ابن الجوزي: " هيهات أن يجتمع الهم مع التلبس بأمور الدنيا ، خصوصا الشاب الفقير الذي قد ألف الفقر ؛ فإنه إذا تزوج وليس له شيء من الدنيا ، اهتم بالكسب ، أو بالطلب من الناس فتشتت همته ، وجاءه الأولاد فزاد الأمر عليه ، ولا يزال يرخص لنفسه فيما يحصل إلى أن يتلبس بالحرام ،، ومن يفكر أنه أسير ضرورات لا يجدها فهمته ما يأكل

---

[٧٢] صيد الخاطر ص (٢١١)

[٧٣] مختصر منهاج القاصدين صـ ٢١.

وما يأكله أهله ، وما ترضى به الزوجة من النفقة والكسوة ، وليس له ذلك ، فأي قلب يحضر له ؟ وأي هم يجتمع ؟ هيهات !!

والله لا يجتمع الهم والعين تنظر إلى الناس ، والسمع يسمع حديثهم ، واللسان يخاطبهم ، والقلب متوزع في تحصيل ما لا بد منه..

فإن قال قائل : فكيف أصنع ؟!

قلت : إن وجدت ما يكفيك من الدنيا ، أو معيشة تكفك فاقنع بها ، وانفرد في خلوة عن الخلق مهما قدرت ، وإن تزوجت فبفقيرة تقنع باليسير ، وتصبر أنت على صورتها وفقرها ، ولا تترك نفسك تطمح إلى من تحتاج إلى فضل نفقته .

فإن رزقت امرأة صالحة جمعت همك فذاك ، وإن لم تقدر فمعالجة الصبر أصلح لك من المخاطرة .

وإياك والمستحسنات ، فإن صاحبنهن إذا سلم كعابد صنم ، وإذا حصل بيده شيء فأنفق بعضه ، فبحفظ الباقي تحفظ شتات قلبك..

واحذر كل الحذر من هذا الزمان وأهله ، فما بقي مواس ولا مؤثر ، ولا من يهتم لسد خلة ، ولا من لو سئل أعطى ، إلا أن يعطى نذرا بتضجر ومنة يستعبد بها المعطى بقية العمر ، ويستثقله كلما رآه ، أو يستدعى بها خدمته له ، والتردد إليه".[٧٤]

---

[٧٤] صيد الخاطر ص (٤٣٧ ، ٤٣٨) .

أسباب شتات الهم

* * *أيهــا المتفقـــه ..*

قال ﷺ: " من كانت الآخرة همهٌ جعل الله غناه في قلبـه ، و جمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيــا همــه جعل الله فقره بين عينيه ، و فرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيــا إلا ما قدر له " [٧٥]

فإذا أردت جمع همك فيكون رضا الله تعالى هو همك ، فلابــد لك من انتفاء موانع ذلك ، مما يفسد قلبك ، ويشتت همـــك ، ومـــدار ذلك على اشتغال النفس بالدنيا ، فإذا ألقيتها وصرفت صورتها عـــن نفسك خلا القلب فيتمكن منه الإخلاص ، اللـــهم ارزقنـــا الإخــــلاص واجعلنا من أهله.

يبين لك ابن الجوزي هذا فيقول : " ما رأيت مشتتا للهم ، مبـددا للقلب مثل شيئين :

أحدهما : أن تطاع النفس في طلب كل شيء تشتهيه ، وذلك لا يوقف علــى حد فيه ، فيذهب الدين والدنيا ، ولا ينال كل المراد .

مثل أن تكون الهمة في المستحسنات ، أو في جمع المال ، أو فـــي طلـــب الرياسة ، وما يشبه هذه الأشياء .

فياله من شتات لا جامع له ، يذهب العمر ولا ينال بعض المراد منه .

---

[٧٥] أخرجه الترمذي (٢٥٨٣) في أبواب صفة القيامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠)

والثاني: مخالطة الناس خصوصا العوام والمشي في الأسواق ، فإن الطبع يتقاضى بالشهوات ، وينسى الرحيل عن الدنيا ، ويحب الكسل عن الطاعة ، والبطالة والغفلة والراحة ، فيثقل على من ألف مخالطة الناس التشاغل بالعلم أو العبادة ، ولا يزال يخالطهم حتى تهون عليه الغيبة وتضييع الساعات في غير شيء .

فمن أراد اجتماع همه فعليه بالعزلة بحيث لا يسمع صوت أحد ، فحينئذ يخلو القلب بمعارفه ، ولا تجد النفس رفيقا مثل الهوى يذكرها ما تشتهي .

فإذا اضطر إلى المخالطة كان على وفاق ، كما تتهوى الضفدع لحظة ثم تعود إلى الماء ، فهذه طريق السلامة ، فتأمل فوائدها تطب لك ".[٧٦]

همة كالثريا وجد حضيض

بعض الناس يقول لك : أما عن الهمة فلا تسأل ، أبيت الليالي لا أنام، أذاكر الساعات الطوال ، ولكني لا أرزق الثمرة .

ولسان حاله كقول أبي تمام :

همة تنطح الثريا وجد ... آلف للحضيض فهو حضيض

ويجيبك ابن الجوزي فيقول :

فالجواب : أنه إذا امتنع الرزق من نوع ، لم يمتنع من نوع آخر ، ثم من البعيد أن يرزقك همة ولا يعينك ، فانظر في حالك فلعله أعطاك شيئا ما شكرته ، أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه .

---

[٧٦] صيد الخاطر ص (٤٨٩ ، ٤٩٠).

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيرا ؛ ليؤثرك بلذات العلم ، فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع ، فهو أعلم بما يصلحك " أهـ[٧٧]

فيا عبد الله فتش على أسباب الخلل فتداركها ، اتهم نيتك ، انظر لنعم الله عليك وقصورك في شكرها ، انظر لابتلاءات الله لك كيف كان صنيعك فيها ، هل صبرت أو جزعت ؟ فإذا حرمت الرزق فبذنبك ، وتذكر دائما قول الله تعالى : " **أليس الله بأعلم بالشاكرين** " [الأنعام/٥٣] فربما حرمت لأنك لن تستطيع شكر هذه النعمة ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، والله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

فعليك يا طالب العلم أن تجد في التحصيل ، واصدق الله يصدقك، فإنه كما قال الجنيد : " ما طلب أحد شيئا بصدق وجد إلا ناله ، فإن لم ينله كله نال بعضه ".

ولا تلتفت إلى وساوس الشيطان في تهويل كثرة العلم عليك ، فتفتر عن الطلب .

فقد قال الفضل بن سعيد بن سلم : " كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه ، فعزم على تركه ، فمر بماء ينحدر من رأس جبل على صخرة ، قد أثر الماء فيها، فقال : الماء على لطافته قد أثر في صخرة على كثافتها ، ـ والله ـ لا أدع طلب العلم ، فطلب فأدرك .

فالعلم يجتمع مع الليالي والأيام ، قيل : اليوم شيء، وغدا مثله، من نخب العلم التي تلتقط يحصل المرء بها حكمته ، وإنما السيل اجتماع النقط .

---

[٧٧] صيد الخاطر ص (٢٠٨) .

مجمل القول

أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ :

تعال بعد التفصيل أحصي لك ما يعينك على علو الهمة و الصبر :

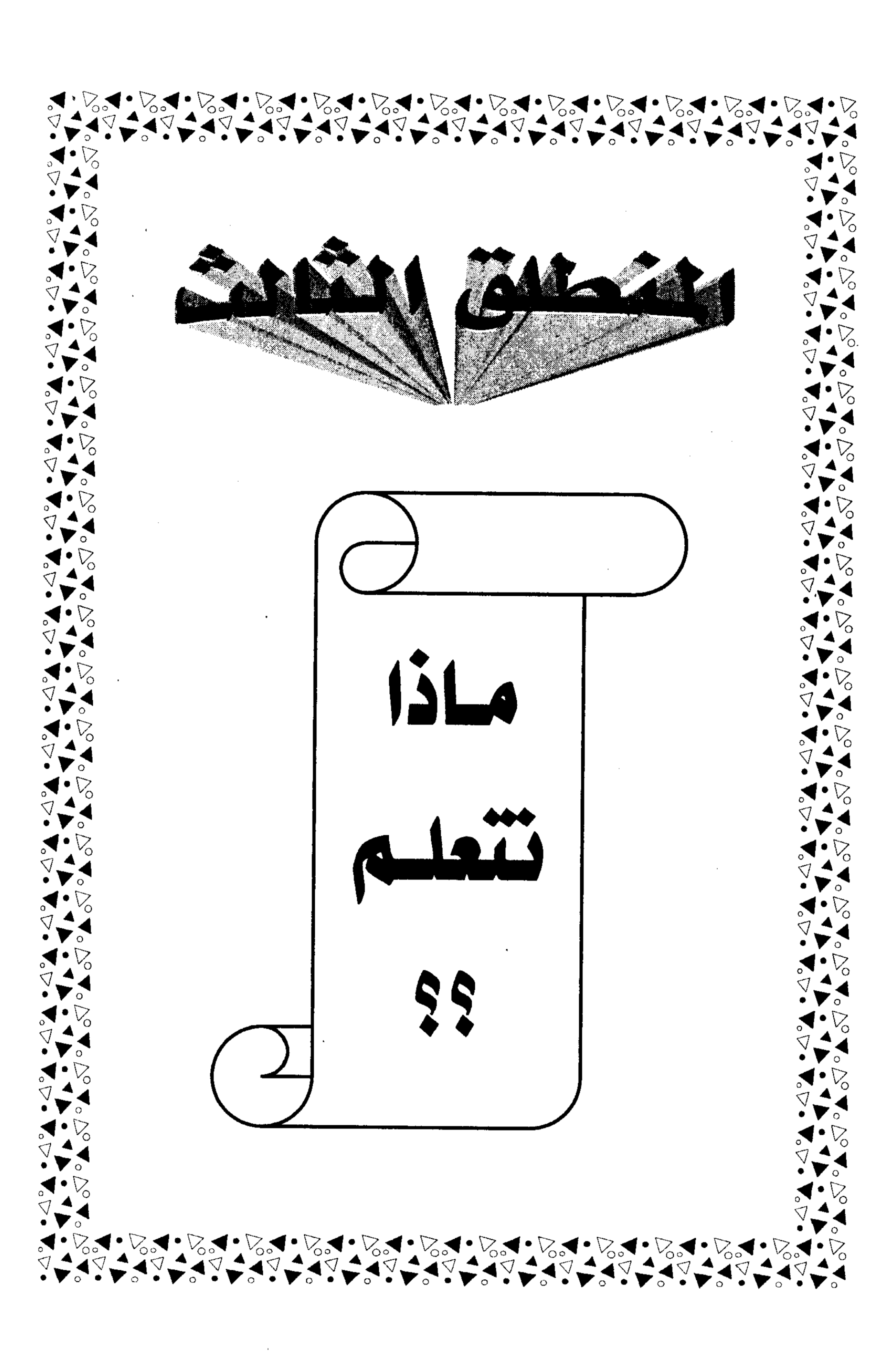
أولا : شكر النعمة وإن قلت　　**ثانيا** : صدق اللجأ و الافتقار إلى الله.

ثالثا : إدمان الدعاء .　　**رابعا** : الصبر و الاصطبار.

خامسا : مخالفة الهوى .　　**سادسا** : الصبر عن الدنيا.

سابعا : جمع الهم..　　**ثامنا** : تأخير الزواج ما أمكن.

تاسعا : لا تطع نفسك في كل ما تطلب.　　**عاشرا** : خذ بحظك من العزلة.



المنطق الشائق
ماذا
تتعلم
؟؟

المنطلق الثالث

(ماذا نتعلم ؟)

أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ : ماذا نتعلم ؟

هذا ــ لعمر الله ــ سؤال صحيح وارد على جميع المسلمين ، فإن رسول الله ﷺ " **طلب العلم فريضة على كل مسلم** " ــ وفي رواية " **على كل مؤمن** "[٧٨]، ولا شك أن الجميع يعلم يقينا أن داء الأمة اليوم الجهل ، ودواؤها العلم ، ولكن : أي علم ؟ وماذا نتعلم ؟ وبماذا نبدأ ؟

يقول ابن قدامة ــ رحمه الله تعالى ــ : " اختلف الناس في ذلك .
قال الفقهاء : هو علم الفقه ؛ إذ به يعرف الحلال والحرام .
وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال الصوفية : هو علم الإخلاص وآفات النفوس .
وقال المتكلمون : هو علم الكلام .
إلى غير ذلك من الأقوال التي ليس فيها قول مرضي ، والصحيح أنه علم معاملة العبد لربه ، والمعاملة التي كلفها العبد على ثلاثة أقسام : اعتقاد ، وفعل ، وترك .
فإذا بلغ الصبي ، فأول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها ، وإن لم يحصل ذلك بالنظر والدليل ؛ لأن النبي ﷺ اكتفى من أجلاف العرب

---

١ أخرجه الطبراني في معجمه الكبير(١٠/٢٤٠) ، والصغير (١/١٦) ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٠/٣٧٥ ، ١١/٤٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣) .

بالتصديق من غير تعلم دليل، فذلك فرض الوقت ، ثم يجب عليه النظر والاستدلال .

فإذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة ، فإذا عاش إلى رمضان وجب عليه تعلم الصوم ، فإن كان مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة ، وإن جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك .

وأما التروك فهو بحسب ما يتجدد عليه من الأحوال ، إذ لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر إليه ، ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام ، فإن كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير وجب عليه أن يعرف تحريم ذلك .

وأما الاعتقادات فيجب علمها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة ، وجب عليه تعلم ما يصل به إلى إزالة الشك .

وإن كان في بلد قد كثرت فيه البدع ، وجب عليه أن يتلقن الحق ، كما لو كان تاجرا في بلد شاع فيه الربا وجب عليه أن يتعلم الحذر منه .

وينبغي أن يتعلم الإيمان بالبعث والجنة والنار "ا.هـ"[٧٩]

وبناء على ما سبق ، فإن من فروض الأعيان في عصرنا على الذكور والإناث سواء تعلم أحكام النظر لكثرة الاختلاط وشيوع الفاحشة ، ويجب أيضا تعلم أحكام الاختلاط والحجاب والاستئذان ومعرفة المحارم ،

---

[٧٩] مختصر منهاج القاصدين ص (١٥، ١٦)

كذلك وجب الإلمام بمعرفة الربا وأنواعه وأحكامه ، وكذلك أنواع البيوع والإجارات والوكالات ؛ لأن المسلم في هذا العصر يتعامل بكافة أنواع التعاملات يوميا لكثرة البشر وتنوع التعامل وحاجة الناس لبعضهم البعض.

وكذلك يجب من أمور الاعتقادات أشياء كثيرة تخفي على النلس ، مثل : حرمة التبرك بالقبور ، وحرمة التوسل بالموتى ، بل وأشياء من صميم العقيدة مثل : تحكيم شرع الله ، والولاء والبراء ، وأحكام أهل الذمة ، وغير ذلك مما يلزم شرعا.

فهذه الأمور من فرائض الأعيان على كل مسلم بحيث إذا لم يتعلمها أثم على ذلك لاسيما والوسائل متاحة من كتب أو أشرطة ، ويستطيع المرء أن يسأل أهل العلم في مشارق الأرض ومغاربها عبر الهاتف أو بالبريد ، ولجان الفتوى موجودة في معظم بلاد الإسلام ، ولا تزال طائفة من أهل الحق ظاهرين ، والحمد لله رب العالمين .

لكن من العلوم ما يكون فرضه على الكفاية ، بحيث إذا تقاعست الأمة بأسرها عن تعلم هذا العلم أثموا جميعا ، وإن قامت به جماعة منهم سقط فرضه عن باقي الأمة وأثيبوا على ذلك .

يقول ابن قدامة : " فأما فرض الكفاية :فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا ، كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة ، والحساب فإنه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها .

فهذه العلوم لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلـد ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين .

ولا يتعجب من قولنا : " إن الطب والحساب من فروض الكفاية ، فإن أصول الصناعات أيضا من فروض الكفاية كالفلاحة والحياكة بل الحجامة فإنه لو خلا البلد عن حجام لأسرع الهلاك إليه، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلى استعماله ، وأما التعميق في دقائق الحساب ودقائق الطب وغير ذلك فهذا يعد فضلة ؛ لأنه يستغنى عنه .

وقد يكون بعض العلوم مباحا كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار ، وقد يكون بعضها مذموما كعلم السحر والطلسمات والتلبيسات .

فأما العلوم الشرعية فكلها محمودة ، وتنقسم إلى : أصول ، وفروع ، ومقدمات ،ومتممات .

فالأصول : كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة.

والفروع : ما فهم من هذه الأصول من معان تنبهت لها العقول ، حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره ، كما فهم من قوله : " **لا يقضى القاضي وهو غضبان** "[٨٠] أنه لا يقضي جائعا .

---

[٨٠] أصله في الصحيحين ، أخرجه البخاري (٧١٥٨) ك الأحكام ، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان ، ومسلم (١٧١٧) ك الاقضية ، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان من حديث

والمقدمات : هي التي تجرى مجرى الآلآت ، كعلم النحو واللغة، فإنهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والمتممات : كعلم القراءات ، ومخارج الحروف ، وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم وأحوالهم ، فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة".[٨١]

فاعلم ــ حبيبي في الله ــ أن العلوم ليست على مرتبة واحدة ، فمن العلوم ما ينبغي عليك الاستكثار منه دون حد ، ومنها ما يلزمك التوقف فيه عند حد مخصوص ، وأنه لا يشتغل بالفرض الكفائي قبل الفرض العيني ، وأنك لا تسعى في تعلم علوم الأدوات والوسائل إلا بقدر ما تحقق به الغاية ، كمن يتعلم علوم اللغة ليستقيم فهمه ويحسن تدبر النصوص الشرعية من كتاب وسنة فإذا به يجنح إلى تعلم الغرائب ، ويغوص في بعض المسائل الفلسفية مما سطروه في بعض كتب المطولات في النحو وغيره .

يقول ابن قدامة : " واعلم أن العلوم المحمودة تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: محمود إلى أقصى غاياته ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل ، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ؛ فإن هذا علم مطلوب لذاته ، والتوصل به إلى سعادة الآخرة ، وهو البحر الذي لا يدرك غوره ، وإنما يحوم المحومون على سواحله وأطرافه بقدر ما تيسر لهم.

أبي بكرة نفيع بن الحارث أنه كتب إلى ابنه وكان بسجستان بأن لا تقضي بين اثنين وأنت غضبان فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " **لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان** "

[٨١] مختصر منهاج القاصدين (١٦، ١٧) .

القسم الثاني : العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص ، وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات ، فإن في كل منها افتقارا واقتصارا واستقصاء "[٨٢]

نصيحة غالية

وتبقى هنا نصيحة مهمة لكل سائر في طريق الطلب ، فإن الفائدة المرجوة من سلوكك هذا السبيل هو إصلاحك نفسك ، فحذار أن تكون كالسراج تضيء لغيرك ، وأنت تحرق نفسك .

يقول ابن قدامة : " فكن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك ، وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك .

واشتغل بإصلاح باطنك ، وتطهيره من الصفات الذميمة ، كالحرص والحسد والرياء والعجب قبل إصلاح ظاهرك.

فإن لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض الكفايات ، فإن في الخلق كثيرا يقومون بذلك ، فإن مهلك نفسه في طلب صلاح غيره سفيه ، ومثله : مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه ، وهو يذب الذباب عن غيره .

فإن تفرغت من نفسك وتطهيرها ــ وما أبعد ذلك !! ــ فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدرج في ذلك .

---

[٨٢] مختصر منهاج القاصدين ص (٢٠) .

فابتدئ بكتاب الله عز وجل ، ثم بسنة رسوله ﷺ ، ثم بعلوم القرآن من التفسير ، ومن ناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، إلى غير ذلك . وكذلك في السنة .

ثم اشتغل بالفروع ، وأصول الفقه ، وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ، ويساعد فيه الوقت ، ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبا للاستقصاء ، فإن العلم كثير ، والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها ، وكل شيء يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب " .[83]

فيا أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ :

حصل أولا ما يجب عليك عينا ، ثم تعال لنقول بعد ذلك : كيف تبدأ بعد تحصيل فرض العين ؟

وهاك الجواب وهاك بيانه :

فأول ما يبدأ به التوحيد ، والفقه ، وأعمال القلوب .

التوحيد أولا :

التوحيد أو ما نسميه بعلم العقيدة ، وهو فقه الإيمان ، فتصحح إيمانك الذي ستلقى ربك به ، لتعد لأسئلة المصير جوابا حين تسأل من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فتصحح إيمانك ، إذ لا يقبل منك عمل إلا بعد سلامة هذا الإيمان وصحته .

قال تعالى : " **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** " [النحل /٩٧] ،

---

[83] الموضع السابق .

وقال جل وعلا: " **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهـــو مؤمن فأولــئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** " [النساء/١٢٤]

التوحيد من فقه الإيمان سماه السلف التوحيد لقول النبي ﷺ لمعــاذ "**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهــم إلــى أن يوحدوا الله تعالى** "[٨٤] فالتوحيد أول واجب في العلم والعمل والدعوة.

ثانيا : الفقه

وعلم الفقه به تصحح عملك ،فيكون على المتابعة لأمر الله ورســوله ﷺ؛ لأن الله أمر بأوامر عامة مجملة ، وجاء رسول الله ﷺ ليفسر هــذه الأوامر ، ويفصلها ويبينها ويوضحها .

فيقول ﷺ : " **صلوا كما رأيتموني أصلي** "[٨٥] ويشدد في الاتباع حتى يقـول لمن صلى لا كصلاته " **ارجع فصل فإنك لم تصل** "[٨٦] ، ويقول ﷺ " **لتأخذوا مناسككم** "[٨٧]

فالعبادة لا تصح بحال إلا كما فعلها الرســول ﷺ ، قــال الله تعــالى : "**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** " [الحشر/٧]

---

[٨٤] أخرجه البخاري (٧٣٧٢) ك التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيــد الله تبــارك وتعالى .

[٨٥] أخرجه البخاري (٦٣١) ك الأذان ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة .

[٨٦] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٧٥٧) ك الأذان ، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم ، ومســلم (٣٩٧) ك الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة .

[٨٧] أخرجه مسلم (١٢٩٧) ك الحج ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة "[٨٨]

فالطهارة ، والصلاة ، والجنائز ، والزكاة بأنواعها ، والصيام ، والاعتكاف ، والحج والعمرة ، والأيمان والنذور ، والأطعمة والأشربة ، والصيد والذبائح ، والأضاحي والعقيقة ، والبيوع ، والإجارات والوكالات والحدود والمعاوضات المالية والمناكحات والمخاصمات والأمانات والتركات ، كل هذه من أنواع التشريع التي لا بد من العلم بها عند مزاولتها أو الحاجة إليها فرض عين والعلم بها أيضا من فروض الكفايات على عموم الأمة.

لا بد من العلم بها لتقع على الوجه الذي يرضى الله بما فعله رسوله ﷺ.فلا بد من الفقه وتعلمه لتصحيح العبادة وضبط حياة الناس بالتشريع الإلهي ، والذي لا علم عنده في هذا الجانب ، إما أن يبتدع أو يخطئ فحذار .

ثالثا : أعمال القلوب:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " أما بعد : فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب – التي قد تسمى " المقامات والأحوال " – وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين ، مثل : محبة الله ورسوله ، والتوكل على الله ، وإخلاص الدين له ، والشكر له والصبر على حكمه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وما يتبع ذلك .

---

[٨٨] العبودية ص (٤) ط دار المدني .

فأقول : هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق - المـــأمورين في الأصل - باتفاق أئمة الدين " أهــ[٨٩]

فهذه الأعمال القلبية من الإخلاص واليقيـن والتوكـل والرضـا والإنابة واجبة على جميع المكلفين ، وطالما وجبت فعلا وجبـت علمـا ، فعلمها أيضا فرض عين على كل من احتاج إليها ، والكل في حاجة إليـها ، وفرض الكفاية لإيجاد العلماء بها في الأمة الذين يقومون بفروض الكفايـة في العلوم المختلفة .

فعليك ـ أيها المتفقه ـ أن تبذل قصارى جهدك في تعلم هــذه العلوم الثلاثة بعد تعلمك لفرائض الأعيان ، ومن هنا بنـــي المنـــهج السلفي على أصول ثلاثة : التوحيد ، والاتباع ، والتزكية .

---

[٨٩] مجموع الفتاوى (١٠/٥) بتصرف يسير .


المنطلق الرابع
التَّزكية
مع
التَّعلم

المنطلق الرابع

(التزكية)

من الشروط التي عرفها العلماء بالاستقراء في أحوال الرسل بلزوم توافرها في كل رسول من عند الله : الفطنة ، ومن استقرأ أحوال الرسل عرف أهمية هذا الشرط وتوافره ، فنجد الرسل أنفع الناس للناس ، وهم أعلم الناس بما يصلح الناس وينفع الناس ، وبالفعل علموه للناس .

قال رسول الله ﷺ: " **إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم** " [٩٠]

أضف إلى ذلك حرصهم صلوات الله عليهم وسلامه على هداية الناس ، انظر إلى خليل الله أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وهو يقول: "**ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** " [البقرة/١٢٩].

إنه سؤال له مغزاه انظر إلى قوله "**فيهم**" وقوله " **منهم** " ، ثم الغرض من إرسال هذا الرسول فيهم :

١) **يتلو عليهم آياتك** . ٢) **يعلمهم الكتاب والحكمة** . ٣) **ويزكيهم .**

وسبحان الملك القدوس العليم الحكيم ، يشاء الله جل وعلا أن يستجيب دعاء خليله إبراهيم قال تعالى : " **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**"[البقرة/١٢٩].

---

[٩٠] جزء من حديث أخرجه مسلم (١٨٤٤) ك الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول .

وقال جل وعلا : " **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** " [آل عمران/ ١٦٤] .

ويقول تعالى : " **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** " [الجمعة /٢]

فهذه ثلاث آيات من القرآن تفيد استجابة الله تعالى دعاء إبراهيم ﷺ، وامتنان الله بذلك على المؤمنين، ولكن لاحظ كيف رتب الله وظيفة الرسول المبعوث ﷺ ترتيبا آخر على غير نسق طلب إبراهيم ﷺ ، والله أعلم بما يصلح عباده ، فطلب إبراهيم لوظيفة الرسول :

١) يتلو عليهم آياتك . ٢) يعلمهم الكتاب والحكمة . ٣) ويزكيهم .

أما امتنان الله ففي :

١) يتلو عليهم آياتنا ٢) يزكيهم ٣) يعلمهم الكتاب والحكمة .

ولم يتخلف هذا الترتيب في آية واحدة من الثلاثة ، ولا رابعة من جنس هذه الآيات في القرآن كله ، وهذا يدل – إن دل – على شيء واحد ، وهو أهمية تزكية القلب قبل التعلم ، وتوحي بشيء من هذا أوائل سورة المزمل قال تعالى : " **يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا** " [المزمل/١٥]

فقيام الليل نوع من أنواع التزكية ؛ لأن التزكية عند أهل السنة والجماعة بكثرة العبادة ؛ لأن الإيمان يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي ، وما تزكية القلب إلا بزيادة الإيمان ،. فقيام الليل تزكية للقلب استعدادا لتلقى العلم (**القول الثقيل**) .

حقيقة التزكية

التزكية **في اللغة** : من الزكاة ، وأصل الزكاة :" الطهارة والنماء والبركة والمدح "

وهذا المعنى اللغوي هو المقصود من التزكية **اصطلاحا** ، فهذه المعاني الثلاثة مرتبة : التطهير ، النماء ، الصلاح.

فالتخلية أو التطهير لازم أولا ؛ لأننا نعيش في عصر كثر فيه الخبث ، وما من أحد يعيش في المجتمع إلا أصابه من هذا الخبث بقدر اختلاطه ومعاشرته لأهل مجتمعه ، فإذا أذن مؤذن الفلاح ، وسمع العبد داعي النجاح " **حي على الفلاح** " وأذن الله له بتوبة ، وبدأ طريق الالتزام، وعرف طريق المسجد ، ودله أهل الخير على طلب العلم ، فلابد من التطهير للتخلص من رواسب الجاهلية [٩١] التي مر بها في أوليات حياته ، لا بد من تطهير قلبه أولا ..

---

[٩١] تكلمنا في غير ما موضع عن قضية " **التخلص من رواسب الجاهلية** " ولي في ذلك محاضرات مسجلة تحت هذا الإسم ، وراجع في ذلك كتاب " كيف أتوب ؟ " ص (١١٦) في الحديث عن خلع العادات ، و" إلى الهدى ائتنا " ص (١١٦-١٢٦) ، ولنا كتاب خاص في هذا الموضوع يسر الله إخراجه .

ثم لا بد من تنمية جوانب الخير فيه ، قال ﷺ : " **إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق** "[٩٢] فبعد تطهير جوانب الإثم والضلال تتميم جوانب الخير والبر والأخلاق فتكون النتيجة الصلاح الدائم .

<u>التزكية لماذا ؟</u>

إذا أردنا أن نشرب ماء صالحا فلا بد من تطهير الإناء وجلي الوعاء ، ووعاء العلم وإناؤه القلب ..

قال تعالى :" **بل هو آيات بينات في صدور الذين أتوا العلم** " [العنكبوت/٤٩]

وقال تعالى: " **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** " [الرعد / ١٧]

قال ابن القيم ــ رحمه الله تعالى ــ " فهذا هو المثل المائي ، شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب بالماء الذي أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية الحاملة للسيل ، فقلب كبير يسع علما عظيما ، كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ، كما سالت الأودية بقدرها ، ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحتمله السيل ، فيطفو على وجه الماء زبدا عاليا يمر عليه متراكبا ، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض ،

---

[٩٢] أخرجه الإمام أحمد (٢/٣٨١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩) .

فيقذف الوادي ذلك الغثاء إلى جنبتيه ، حتى لا يبقى منه شيء ، ويبقى الماء الذي تحت الغثاء ، يسقي الله تعالى به الأرض فيحيى به البلاد والعباد والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاء ، يجفى ويطرح على شفير الوادي .

فكذلك العلم والإيمان الذي أنزله في القلوب ، فاحتملته فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات ، وزبد الشبهات الباطلة يطفو في أعلاها واستقر العلم والإيمان والهدى في جذر القلب، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء ، ويزول شيئا فشيئا حتى يزول كله ، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص في جذر القلب، يرده الناس فيشربون ويسقون ويمرعون .

وفي الصحيح من حديث أبى موسى عن النبي قال : " **مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به** "[٩٣] . أهـ[٩٤]

---

[٩٣] أخرجه البخاري (٧٩) ك العلم ، باب فضل من علم وعلم ، ومسلم (٢٢٨٢) ك الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث به النبي من الهدى والعلم .

[٩٤] الوابل الصيب ص (٦٨، ٦٩) ط دار الكتب العلمية .

فانظر ــ رحمك الله ــ إلى هذا الحديث فهو يصف لك الحال الذي نود شرحه ، فقد شبه لك فيه رسول الله ﷺ العلم بالغيث ، والقلب بالأرض " **كمثل غيث أصاب أرضا** " ، فكما ينزل الغيث على الأرض ينزل العلم على القلب ، فلو أن غيثا أصاب أرضا بها حنظل ، إذا لــزاد الغيث الحنظل مرارة ، ولو أن غيثا أصاب أرضا بها شوك إذا لــزاد الغيث الشوك توهجا ، وهكذا

ولو أن العلم نزل على قلب به كبر لزاد به القلب تكبرا ، وكذلك لو كان في القلب عجب أو غرور أو حب رياسة وظهور ، فإنه يزيد بالعلم ما فيه ، وتصديق هذا من كتاب الله عز وجل قوله تبارك اسمه : " **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** " [التوبة /١٢٤-١٢٥]

فالآية الواحدة تكون للمؤمن شفاء وللظالم خسارا ، تزيد المؤمن إيمانا ، وتزيد المنافق مرضا في قلبه ، وهذه من آيات الله ، فإن نزل العلم على قلب فيه تواضع زاده تواضعا ، وإن دخل العلم على قلب فيه كبر زاده كبرا وغرورا .

وقال تعالى : "**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** " [الإسراء/٨٢]

ثم قال جل وعلا: "**قل كل يعمل على شاكلته** " [الإسراء/٨٤]

فلا بد من تطهير القلب وإعداده ، وإلا فستكون فتنة ، وكم رأينا على الساحة وبين طلبة العلم من كان في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، نسأل الله العافية ، وتمام العافية ، ودوام العافية لجميع المسلمين والمسلمات .

ولذلك كان السلف ـ رضوان الله عليهم ـ لا يعلمون أحدا العلم حتى يروضوا نفسه سنين كثيرة ، ويظهر لهم صلاح نيته .

قال الإمام النووي في " مقدمة المجموع " : وقد كان عبد الرحمن بن القاسم المصري الفقيه المالكي المتوفى بمصر سنة ١٩١ هـ يقول : " خدمت الإمام مالك عشرين سنة ، كان منها ثمان عشرة سنة في تعليم الأدب ، وأخذت منه العلم في سنتين "

وقد كان الإمام مالك يقول : " ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما العلم ما نفع ، وعمل به صاحبه " .

وكان الإمام الشافعي يقول : " قال لي الإمام مالك يا محمد اجعل عملك دقيقا ، وعلمك ملحا " .

فانظر ـ رحمك الله ـ ماذا يصلح الدقيق من الملح ، إنها قطرات من الملح على أكوام من الدقيق فاعمل.

وكان عبد الله بن المبارك يقول : " من حمل القرآن ، ثم مال بقلبه إلى الدنيا ، فقد اتخذ آيات الله هزوا ، وإذا عصى حامل القرآن ربه ناداه القرآن في جوفه : ـ والله ـ ما لهذا حملت ، أين مواعظي وزواجري ؟ وكل حرف مني يناديك ويقول : لا تعص ربك .

وكان الإمام أحمد بن حنبل إذا رأى طالب العلم لا يقوم من الليل يكف عن تعليمه ، وقد بات عنده أبو عصمة ليلة من الليالي ، فوضع له الإمام ماء للوضوء ، ثم جاءه قبل أن يؤذن للصبح فوجده نائما ، والماء بحاله فأيقظه .

وقال : لم جئت يا أبا عصمة ؟ فقال : جئت أطلب الحديث .

قال :كيف تطلب الحديث ، وليس لك تهجد في الليل ، اذهب من حيث جئت.

وكان الإمام الشافعي يقول : " ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فيما بينه وبين الله تعالى ، فإن كل ما ظهر للناس من علم أو عمل قليل النفع في الآخرة ، وما رؤى أحد في منامه فقال : غفر الله لي بعلمي إلا قليل من الناس .

فاقبل ــ أيها المتفقه ــ على تزكية نفسك وتطهير قلبك ؛ لكى يزكو علمك وتنتفع .

قال عز وجل: " **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى** " [الأعلى/١٤١٥]

وقال تعالى : " **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** " [الشمس/٩- ١٠]

فائدة مهمة

قد يكون الأوجب في هذا الزمان أن يتواكب الأمران ، التزكية مع التعلم ؛ لأن غالب أهل الزمان يبدؤون الطلب متأخرين ، والعمر قصير ؛ فلذلك اطلب العلم ، واحرص على التزكية معه ، وليسيرا في خطين متوازيين .

يقول ابن الجوزي – رحمه الله تعالى – :

فصل : لا يصلح العلم مع قلة العمل.

رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين ؛ لأنهم تناولوا مقصود النقل ، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها ، وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء .

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم، وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء ؟

وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه لا لاقتباس علمه ؛ وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته ، فافهم هذا ، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ؛ ليكون سببا لرقة قلبك .[٩٥]

وقال في موضع آخر :

فصل : التلطف بالنفس

" تأملت العلم والميل إليه والتشاغل به ، فإذا هو يقوي القلب قوة تميل به إلى نوع قساوة ، ولولا قوة القلب ، وطول الأمل لم يقع التشاغل به، فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه ، وابتدئ بالتصنيف أرجو أن أتمه ،

---

[٩٥] صيد الخاطر ص (٢٥٣) .

فإذا تأملت باب المعاملات قل الأمل ، ورق القلب ، وجاءت الدموع ، وطابت المناجاة ، وغشيت السكينة ، وصرت كأني في مقام المراقبة ، إلا أن العلم أفضل وأقوى حجة ، وأعلى مرتبة ، وإن حدث منه ما شكوت منه.

والمعاملة وإن كثرت الفوائد التي أشرت إليها منها ، فإنها قريبة إلى أحوال الجبان الكسلان ، الذي قد اقتنع بصلاح نفسه عن هداية غيره ، وانفرد بعزلته عن اجتذاب الخلق إلى ربهم .

فالصواب العكوف على العلم مع تلذيع النفس بأسباب المرققات تلذيعا لا يقدح في كمال التشاغل بالعلم " [٩٦]

وقال في موضع ثالث :

فصل العلم والعمل

لما رأيت رأي نفسي في العلم حسنا ، فهي تقدمه على كل شيء ، وتعتقد الدليل ، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل ، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل : أني رأيت كثيرا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم ، عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول ، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السهلة والرأي الصحيح . إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم فصحت بها :

فما الذي أفادك العلم ؟ أين الخوف ؟ أين القلق ؟ أين الحذر ؟ أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم ؟

أما كان رسول الله ـ ﷺ ـ سيد الكل ، ثم إنه قام حتى تورمت قدماه ؟

---

[٩٦] صيد الخاطر ص (١٧٠-١٧١)

أما كان أبو بكر ﷺ شجي النشيج ، كثير البكاء ؟

أما كان في خد عمر ﷺ خطان من آثار الدموع ؟

أما كان عثمان ﷺ يختم القرآن في ركعة ؟

أما كان على ﷺ يبكى بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بـــالدموع ؟
ويقول : يا دنيا غرى غيرى !!

.أما كان الحسن البصرى يحيا على قوة القلق ؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازما المسجد فلم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة ؟

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر ؟

أما قالت بنت الربيع بن خثيم له : ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟
فقال : إن أباك يخاف عذاب البيات ؟

أما كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر ؟

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة وكان يقـــول : والـــهفاه !! ســـبقني العابدون، وقطع بى .

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة ؟

أما كان سفيان الثوري يبكى الدم من الخوف ؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف ؟

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم ؛ أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد ؟

فاحذري من الإخلاد إلى صورة العلم ، مع ترك العمل به ، فإنها حالة الكسالى الزمنى .

وخذ لك منك على مهلــة

ومقبــل عيشــك لم يدبــر

وخف هجمة لا تقيل العثار

تطوى الورود على المصدر

ومثــل لنفسك أي الرعيل

يضمك في حلبــة المحشــر[٩٧]

بقي أمر مهم للغاية ألا وهو : **كيف تزكو قلوبنا ؟**[٩٨]

وهذا ــ لعمر الله ، أمر خطير ، ولكنه يسير على من يسره الله عليه.

فأول ذلك :

١) **الإخلاص** وقد سبق الإشارة إليه في الانطلاقة الأولى .

٢) **مجموعة أعمال صالحة ثابتة بمنهجية في المداومة والتــدرج ،** وشرط ذلك أن تكون هذه الأعمال على سنة النبي محمد ﷺ.

٣) **إصلاح الفرائض .**

فما تقرب العبد لربه بأحب إليه مما افترض عليه ، فأصلح الصلــوات المكتوبات بالمواظبة عليها في جماعة ، لا تفوتك تكبـــيرة الإحــرام

---

[٩٧] صيد الخاطر (٧٢، ٧٣) .

[٩٨] سيأتي في " المنطلق العاشر " منهجا كاملا في التربية فانظره هنالك .

خلف الإمام ، وأحضر قلبك في صلاتك ، ولا تلتفت ، وهكذا فـأصلح ما افترض عليك .

٤) الإقلاع عن المعاصي فورا

فالمعاصي تميت القلوب ، وتفسد العلم ، فلابـد مـن الإقـلاع عـن المعاصي ودوام التوبة وخصوصا المعاصي القلبية من كبر وعجـب وغرور ، فإياك والمعاصي فإنها قتالة .

٥) العمل بالعلم

فكلما تعلمت شيئا اعمل به ، ولا تكتب أو تسمع حديثا إلا وعملت به، ولو لمرة واحدة ، واحذر التفريط في ذلك ، فكل علم لم تعمـل بـه حجة عليك ، فليكن العمل همك ، وانظر لأثر العلم فيك .

٦) الاهتمام بأحوال القلب من الانكسار لله ، وصدق اللجـأ إليـه ، وإقبال القلب عليه في طلب محبته ورضاه ، وعموما أطل النظر إلـى قلبك ، وتدبر حالك .

كيف حال قلبك مع الله ؟! كيف حال قلبك بعد الطاعة وحال الطاعة ؟

كيف حال قلبك عند المعصية وبعد المعصية ؟

كيف حال قلبك عند سماع القرآن ؟ كيف حال قلبك في الصلاة ؟

كيف حال قلبك عند سماع أخبار من هو أفضـل منـك فـي أمـور الآخرة؟ وكيف حاله عند سماع أخبار من هو دونك ؟

كيف حال قلبك عند رؤية العصاة ؟ كيف حال قلبك عند مشاهدة أهـل البلاء ؟

كيف حال قلبك في الخلوة مع القدرة على المعصية ؟
كيف حال قلبك عندما تعرض عليه فعل طاعة ؟ تأمل دوماً حال قلبك، أصلح الله قلبي وقلبك .

٧) مطالعة سير الصالحين والعلماء العاملين ، فإن لها فضلا في بعث الهمة على تزكية النفس .

فلا تغفل عن تزكية النفس ، فالنفوس تتفاوت ، فلكل منها ما يصلحها، فانظر إلى ما يصلح قلبك فاعمل به ، وسل الله العافية .

قال صاحب مختصر منهاج القاصدين : فأما علم المعاملة ، وهو علم أحوال القلب كالخوف والرجاء والرضا والصدق والإخلاص وغير ذلك فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم كسفيان وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد .

وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه " أهـ[٩٩]

---

[٩٩] مختصر منهاج القاصدين ص (٢٧) ط دار عمار بتحقيق على حسن عبد الحميد .

المنطلق الخامس

كُنْ سلفياً على الجادة

المنطلق الخامس

(السلفية)

أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ :

" إذا علمت بأهمية البداية بعلم العقيدة وعلم الفقه ، فلا بد بعد الإخلاص من الصواب في الطلب ، **فكيف تطلب العلم ؟!**

أما في العقيدة فلا بد من الطلب على منهج السلف الصالح ــ رضوان الله عليهم ــ ، وهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وقد زكى الله فهمهم ، وأمرنا أن نلقاه سبحانه بإيمان كإيمانهم .

قال تعالى : " **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق** " [البقرة /١٣٧] .

فهكذا إما إيمان الصحابة الذين رضى الله عنهم وتاب عليهم ، وإما التفرق والاختلاف والتشرذم " **فإنما هم في شقاق** " .

فلا بد من دراسة عقيدة السلف الصحيحة ، وهي فهم نصوص الكتاب والسنة في أنواع التوحيد بفهمهم ، والاستقاء من علومهم ، والنهل من منابعهم ، وإلا فالضلال الضلال .

قال ﷺ : " **إنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة** "[١٠٠]

---

[١٠٠] جزء من حديث أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ك السنة ، باب في لزوم السنة ، وصححه الألباني (٣٨٥١) في صحيح أبي داود .

والعودة للفهم الأصيل "**فهم السلف الصالح** " أصبح اليوم ضرورة ملحة ؛ وذلك لجمع شتات الأمة ، فتتوحد كلمتهم بتوحد الأصول ، فيقل التنازع والتشاحن الذي ابتلي به المسلمون في هذه الأيام ، وكل هذا لأننا لم نع الوصية النبوية . قال رسول الله ﷺ : " **وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة . قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي** " [١٠١]

ﷺ، فقد دلنا على الفرقة الناجية ، فاحرص على النجاة ، **ـ أخي في الله ـ** وانضم إلى هذه الفرقة ، واحرص في بداية التعلم أن يكون التلقي على منهج السلف الصالح ، فإن لذلك أثرا في استقامتك على الطريقة ، فمن صحت بدايته صحت نهايته ، فأصلح نيتك عسى الله أن يصلح بك ، فشتات الأمة اليوم يفجع كل قلب حي ، فإن كان طلب العلم ضرورة ، فطلبه على منهج السلف ضرورته أشد ، وتأتى تلك الضرورة في الوقت الحاضر بالذات ؛ لأنه لا بد للأمة من معالم صحيحة في طريق عودتها إلى الله عز وجل ، تبين لها المنهج الصحيح في فهم العقيدة التي هي القاعدة الأساسية لبناء المجتمع الإسلامي الصحيح .

وما لم يكن المنهج الذي يتبع صحيحا فإن اليقظة الإسلامية ستنحرف عن مجراها السليم ، ونحن نعتقد اعتقادا جازما أن منهج أهل

---

[١٠١] أخرجه الترمذي (٢٦٤١) ك الإيمان عن رسول الله ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وقال : حسن غريب ، وحسنه الألباني (٥٣٤٣) في صحيح الجامع .

السنة والجماعة في فهم العقيدة الإسلامية هو المنهج الصحيح الذي يجب تقديمه للأمة الإسلامية اليوم لكي تصبح بحق أمة مسلمة تستحق نصر الله ورضوانه .

وفي هذا المنهج صيانة للعقل البشري من التمزق والانحراف ، وللمجتمع من الفرقة والضلال ، ولم يحدث الانحراف في الأمة إلا عندما انحرفت عن هذا المنهج وأعرضت عن وحي الله عز وجل إلى مناهج بشرية ، بعضها من مخالفات الفلسفة اليونانية الوثنية ، وبعضها من نتاج العقول المنحرفة الجاهلة بدين الله ، فتفرقت الأمة إلى طوائف ومذاهب ، لكل منها منهجه ، وطريقته ، وإمامه ، وأتباعه.

وقد قيض الله عز وجل في كل فترة من فترات الضعف والانحراف علماء مصلحين يحفظون عقيدة الأمة ويحرسونها ، ويردون على من خالفها أو عارضها من صدر الإسلام إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة بمشيئة الله تعالى.

أولا : ما هي العقيدة ؟

العقيدة لغة : من العقد ، والتوثيق والإحكام والربط بقوة .

واصطلاحا : الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده .

قيل : معنى العقيدة : هي مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة ، ويعقد عليها الإنسان قلبه ، وثنى عليها صدره ، جازما بصحتها قاطعا بوجوبها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدا.

فالعقيدة الإسلامية تعني : الإيمان الجازم بالله تعالى ، وما يجب له من التوحيد والطاعة ، وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، وسائر ما ثبت من أمور الغيب ، والأخبار ، والقطعيات ، علمية كانت أو عملية .

وإذا كنت – أيها المتفقه – مطالبا بعقيدة سلفية فهل يا ترى تعرف من السلف ؟

من هم السلف ؟

السلف : هم صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ، وأئمة الهدى في القرون الثلاثة المفضلة ، ويطلق على كل من اقتدى بهؤلاء وسار على نهجهم في سائر العصور ، سلفي نسبة إليهم .

وقد كان يطلق عليهم في البداية " **أهل السنة** " ، لما كانوا هم المتبعين لسنة رسول الله ﷺ، المقتفين للأثر فسموا " **أهل الأثر** " ، " **أهل الحديث** " .

ثم لما انتشرت البدع صار يطلق عليهم " **أهل السنة والجماعة** " .

وأهل السنة والجماعة : هم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وسموا أهل السنة لاستمساكهم واتباعهم لسنة النبي ﷺ ، وسموا " **الجماعة** " لأنهم الذين اجتمعوا على الحق ، ولم يتفرقوا في الدين، واجتمعوا على أئمة الحق ؛ ولم يخرجوا عليهم .، واتبعوا ما أجمع عليه سلف الأمة.

ولما صار من المبتدعة من ينسب نفسه إلى هذا اللقب الشريف كان لزاما أن يمتازوا عن غيرهم ومن هنا نشأ مصطلح " **السلفية** " نسبة إلى سلف هذه الأمة من أهل الصدر الأول ومن اتبعهم بإحسان .

أبرز قضايا العقيدة السلفية

ومن أهم قضايا العقيدة السلفية "**مسألة الصفات** " فإن أكثر الخلاف فيها ، وخلاصة القول فيها : أن أحاديث وآيات الصفات نمرها كما جاءت دون تعطيل ، أو تأويل ، أو تشبيه ، أو تمثيل .

فنثبت أن لله يدا ، ولكن ليست كأيدينا ، يدا تليق بجلاله وكماله "**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**" [الشورى/١١] .

ونثبت أن الله ينزل ، لكن لا كنزولنا ، وإنما نزولا يليق بجلاله وكماله وكماله " **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** " [الشورى/١١] وهكذا.

قواعد وأصول أهل السنة والجماعة في منهج التلقي والاستدلال .

ويقوم المنهج السلفي على قواعد وأصول تضبط منهج التلقي والاستدلال ، فمن ذلك :

أولا : مصدر العقيدة هو كتاب الله ، وسنة رسوله الصحيحة، وإجماع السلف الصالح.

ثانيا : كل ما صح من سنة رسول الله ﷺ وجب قبوله ، وإن كان خبر آحاد.

ثالثا : المرجع في فهم الكتاب والسنة ، هو النصوص المبينة لها ، وفهم السلف الصالح ، ومن سار على منهجهم من الأئمة ، ثم ما صح من لغة العرب ، لكن لا يعارض ما ثبت من ذلك بمجرد احتمالات لغوية.

رابعا : أصول الدين كلها ، قد بينها النبي ﷺ ، وليس لأحد أن يحدث شيئا زاعما أنه من الدين بعده .

خامسا: التسليم لله ، ولرسوله ظاهرا وباطنا ، فلا يعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة بقياس ، ولا ذوق ، ولا كشف ، ولا قول شيخ ، ولا إمام ونحو ذلك..

سادسا : العقل الصريح موافق للنقل الصحيح ، ولا يتعارض قطعيا منهما ، وعند توهم التعارض يقدم النقل .

سابعا : يجب الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة ، وتجنب الألفاظ البدعية ، والألفاظ المجملة المحتملة للخطأ والصواب ، يستفسر عن معناها ، فما كان حقا أثبت بلفظه الشرعي ، وما كان باطلا رد.

ثامنا : العصمة ثابتة للرسول ﷺ ، والأمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة ، وأما آحادها فلا عصمة لأحد منهم ، وما اختلف فيه الأئمة وغيرهم فمرجعه إلى الكتاب والسنة ، مع الاعتذار للمخطئ من مجتهدي الأمة.

تاسعا : في الأئمة محدثون ملهمون ، والرؤيا الصالحة حق ، وهي جزء من النبوة ، والفراسة الصادقة حق ، وهذه كرامات ومبشرات ، بشرط موافقتها للشرع ، وليست مصدرا للعقيدة ولا للتشريع .

عاشرا : المراء في الدين مذموم ، والمجادلة بالحسنى مشروعة ، وما صح النهي عن الخوض فيه وجب امتثال ذلك ، ويجب الإمساك بالحسنى عن الخوض فيما لا علم للمسلم به ، وتفويض علم ذلك إلى عالمه سبحانه .

حادي عشر: يجب الالتزام بمنهج الوحي في الرد ، كما يجب في الاعتقاد والتقدير فلا ترد البدعة ببدعة ، ولا يقابل التفريط بالغلو ، ولا العكس .

ثاني عشر : كل محدثة في الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار.

خصائص أهل السنة والجماعة وسماتهم

فإذا عرفت أصولهم وقواعدهم في النظر والاستدلال ، وسمعت الأدعياء ينعتون أنفسهم بأنهم منهم ، فاحرص على معرفة خصائصهم وصفاتهم ، فإذا وجدتها فقد أبصرت طريق الهدى ، وإلا فدعي لا تلتفت إليه .

أولا: الاهتمام بكتاب الله عز وجل حفظا وتفسيرا وتلاوة ، والاهتمام بالحديث معرفة وفهما وتمييزا لصحيحه من سقيمه لأنهما مصدر التلقي .

ثانيا: العمل بالعلم ، فالعلم ليس غاية ، وإنما هو وسيلة للعمل به ، قال تعالى : " **إنما يخشى الله من عباده العلماء** " [فاطر/٢٨]

قال ابن مسعود : إنما العلم الخشية ، فمن أوتى شيئا من العلم ولم يؤت مثله من الخشوع فهو مخدوع .

ثالثا: الدخول في الدين كله ، والإيمان بالكتاب كله ، فيؤمنون بنصوص الوعد ونصوص الوعيد ، وبنصوص الإثبات ونصوص التنزيه ،

ويجمعون بين الإيمان بقدر الله ، وإثبات إرادة العبد ومشيئته وفعله ، كما يجمعون بين العلم والعبادة ، وبين القوة والرحمة ، وبين الأخذ بالأسباب

رابعا : الاتباع ، وترك الابتداع ، ونبذ الفرقة والاختلاف في الدين.

خامسا : الاقتداء والاهتداء بأئمة الهدى العدول المقتدى بهم في العلم والعمل والدعوة ، وهم الصحابة ومن سار على نهجهم ، ومجانبة من خالف سبيلهم .

سادسا : الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحق ، وتوحيد صفوفهم على التوحيد والاتباع ، وإبعاد كل أسباب النزاع والخلاف بينهم .

ومن هنا لا يتميزون على الأمة في أصول الدين والاعتقاد باسم سوى "**السنة والجماعة** " ولا يوالون ولا يعادون على رابطة سوى الإسلام والسنة .

سابعا : **التوسط .**

فهم في الاعتقاد وسط بين فرق الغلو وفرق التفريط ، وهم في الأعمال والسلوك وسط بين المفرطين والمفرطين.

ثامنا : الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بغير منكر ، والجهاد بمفهومه الواسع الشامل وضوابطه الشرعية ، وإحياء السنة بنشر العلم ، وإيجاد القدوة والدعوة إلى ذلك ، والعمل لتجديد الدين ، وإقامة شرع الله وحكمه في كل صغيرة وكبيرة ..

تاسعا : **الإنصاف والعدل**:

فهم يراعون حق الله تعالى لا حق النفس أو الطائفة ؛ ولهذا لا يغالون في موال ، ولا يجورون على معاد ، ولا يغمطون ذا فضل فضله أيا كان .

عاشرا : التوافق في الأفهام والتشابه في المواقف رغم تباعد الأقطار والأعصار ، وهذا من ثمرات وحدة المصدر والتلقي .

حادي عشر : الإحسان والرحمة وحسن الخلق مع الخلق كافة .

ثاني عشر : النصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

ثالث عشر : الاهتمام بأمور المسلمين ونصرتهم ، وموالاتهم وأداء حقوقهم ، وكف الأذى عنهم مع دوام الدعاء لهم .

خلاصة الكلام

أنه لا بد من تزكية القلب وتطهيره في البداية ؛ لتحصيل العلم النافع والعمل الصالح ، أو مواكبة التزكية مع الطلب فهما من المهمات الخطيرة في عصرنا.

المنطلق السادس

الفقه - الفهم
وفهم السلف أعلم وأسلم وأحكم .

المنطلق السادس

فهم السلف

قال الله عز وجل : " **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** " [الحجر/٩]

وقال ﷺ : " **نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه**"[١٠٢]

بالآية والحديث نفهم ، وباستقراء الأحوال والنظر في التاريخ نعلم تصديق كلام ربنا عز وجل وحديث نبينا ﷺ ، فنشهد أن الله قيض لحفظ كتابه وسنة نبيه ﷺ فحولا جهابذة من أئمة المسلمين ، وورثة سيد المرسلين عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، جعلهم الله وسائط ووسائل بين الناس وبين رسوله ﷺ ، يبلغون الناس ما قال ، ويفهمون مراد رسول الله ، ويقولون : هذا عهد رسول الله إلينا ، ونحن عهدناه إليكم .

هكذا يتلقاه كل خالف عن سالف .قال رسول الله ﷺ **يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين** "[١٠٣]

وفي الصحيح من حديث أبى موسى عن النبي ﷺ قال : " **مثل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها**

---

[١٠٢] أخرجه الترمذي (٢٦٥٦) ك العلم عن رسول الله ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ، وقال : حديث حسن ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٣٩) .

[١٠٣] أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/٧) ، قال في كنز العمال : قال الخطيب سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث وقيل له كأنه كلام موضوع قال لا هو صحيح سمعته من غير واحد .

طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به "[١٠٤]

يقول ابن القيم ــ رحمه الله ــ : فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات : **الطبقة الأولى** : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا ، ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله .

فهؤلاء أتباع الرسل صلوات الله عليهم وسلامه حقا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها ، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين ، والقوة على الدعوة ؛ ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم : **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار** " [ص /٤٥] أي البصائر في دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه .

فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين ، والبصر بالتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهما خاصا .

---

[١٠٤] أخرجه البخاري (٧٩) ك العلم ، باب فضل من علم وعلم ، ومسلم (٢٢٨٢) ك الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث به النبي من الهدى والعلم .

كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺبشيء دون الناس ؟

فقال : لا ــ والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ــ إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه.

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض ، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن **الطبقة الثانية** ، فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس ، وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها، واتجروا فيها ، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات ، ووردها كل بحسبه " **قد علم كل أناس مشربهم** " [البقرة /٦٠]

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ : " **نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ورب حامل فقه ليس بفقيه** "[١٠٥]

وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القران ، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثا ، الذي يقول فيه " **سمعت** " و" **رأيت** " ، وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك في فهمه ، والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها .

قال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتاويه في سبعه أسفار كبار ، وهي بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه

---

[١٠٥] تقدم تخريجه قريبا .

واستنباطه وفهمه في القران بالموضع الذي فاق به الناس ، وقد سمع كما سمعوا ، وحفظ القران كما حفظوه، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي ، وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فانبتت من كل زوج كريم ، " **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** " [الحديد /٢١]

وأين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوى أبي هريرة وتفسيره ، وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق، يؤدي الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ ، وبلغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها. وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم الحفاظ معتنون بالضبط والحفظ ، والأداء كما سمعوا ، ولا يستنبطون ، ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

وقسم معتنون بالاستنباط ، واستخراج الأحكام من النصوص ، والتفقه فيها .

فالأول : كأبي زرعة ، وأبى حاتم ، وابن وارة ، وقبلهم كبندار محمد بن بشار ، وعمرو الناقد ، وعبد الرزاق ، وقبلهم كمحمد بن جعفر غندر ، وسعيد بن أبي عروبة ، وغيرهم من أهل الحفظ والإتقان ، والضبط لما سمعوه ، من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص .

والقسم الثاني : كمالك ، والشافعي ، والأوزاعي ، وإسحق ، والإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية .

فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ، وهم الذين قبلوه ، ورفعوا به رأسا.

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق ، الذين لم يقبلوا هدي الله ، ولم يرفعوا به رأسا ، فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية .

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراية ، بل حفظهم من الرواية أوفر. **والطبقة الثالثة**: الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية ، " **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**" [الفرقان /٤٤] فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه ، فإن ترقت همته كان همه – مع ذلك – لباسه وزينته ، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الغضبية كان همه في نصرة النفس الكلبية ، فإن لم يعطها انتقل إلى نصرة النفس السبعية ، فلا يعطيها إلا واحد من هؤلاء فإن النفوس : كلبية ، وسبعية ، وملكية .

فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والقذرة .

والسبعية لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، تريد الاستعلاء عليها بالحق والباطل .

وأما الملكية فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمتها العلم والإيمان ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، وإيثار محبته ومرضاته ، وانما تأخذ من الدنيا ما تأخذ ؛ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها لا لتنقطع به عنه "[١٠٦] أهـ

بعد هذا الكلام المتين لابن القيم ــ رحمه الله تعالى وملأ قبره نورا ــ ، علمنا أن الناس في العلم صنفان بتصنيف رسول الله ﷺ :

حفاظ نقلة . فقهاء مجتهدون .

وقد يجمع الوصفين رجال ــ رضي الله عن الجميع ــ فهؤلاء حملوا الدين ، حملوا العلم من الصحابة فمن بعدهم ، حملوه كاملا مكملا ، وبلغوه كما حملوه ، لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة فعلها أو قالها أو أقرها رسول الله ﷺ إلا ونقلوها كما قال ، وفهم بعضهم عن رسول الله ﷺ قوله فاستنبطوا الأحكام من النصوص ، فهموا معاني الكتاب والسنة تارة من نفس القول ، وتارة من معناه ، وتارة من علة الحكم ، حتى نزلوا الوقائع التي لم تذكر على ما ذكر ، وسهلوا لمن جاء بعدهم طريق ذلك .

وهكذا جرى الأمر في كل علم توقف عليه فهم الشريعة بعدهم ، واحتيج في إيضاحها إليه ، ومن تمام العصمة أن جعل الله العلماء أعدادا غفيرة ، فإذا أخطأ الواحد في شيء رده الآخر ، وأصاب الثالث ، ثم قيض الله من

---

[١٠٦] الوابل الصيب (٥٥، ٥٦) .

بعدهم تلاميذهم ، فتعقبوا أقوالهم ، وبينوا ما كان من خطأ ، وأثبتوا ما كان من صواب ، كل ذلك من حفظ الله لذلك الدين ، حتى يكون أهلـــه كمـــا وصفهم الله : " **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** " [التوبة/٧١]

ومن تمام العصمة أن تجد مع هذه الكثرة ، منهم الحافظ الضابط العـــدل ، ومنهم الحكيم الفقيه المتقن ، ومنهم أهل اللغة ، ومنهم أهل القـــراءات ، ومنهم أهل الأصول ، ومنهم العلماء بالرجال الخبراء بمراتبهم ، والكـــل يكمل بعضهم بعضاً ، ويحيلون أصحاب كل سؤال عن علم إلى عالمـــه ، واقرأ معي هذا الأثر البديع وتأمل ـــ لا حرمك الله فقهه ـــ آمين.

روى الدارمي في سننه قال : أخبرنا الحكم بن المبارك أخبرنا عمـــرو بن يحيى قال : سمعت أبي يحدث عن أبيه قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خـــرج مشـــينا معـــه إلـــى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال : أخرج إليكـــم أبـــو عبـــد الرحمن بعد ؟

قلنا : لا . فجلس معنا حتى خرج ، فلما خرج قمنا إليه جميعا .

فقال له أبو موسى : يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المســـجد آنفـــا أمرا أنكرته ، ولم أري ـــ والحمد لله ـــ إلا خيرا .

قال : فما هو ؟ فقال : إن عشت فستراه .

قال : رأيت في المسجد قوما حلقا جلوسا ينتظرون الصلاة ، في كـــل حلقة رجل ، وفي أيديهم حصى ، فيقول : كبروا مائـــة . فيكـــبرون

مائة ، فيقول : هللوا مائة . فيهللون مائة ، ويقـول سـبحوا مائـة . فيسبحون مائة .

قال : فماذا قلت لهم ؟

قال : ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك وانتظار أمرك .

قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم ، وضمنت لهم أن لا يضيع مـن حسناتهم .

ثم مضى ، ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم .

فقال : ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟

قالوا : يا أبا عبد الرحمن حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح .

قال : فعدوا سيئاتكم ، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شـيء ، ويحكم يا أمة محمد ، ما أسرع هلكتكم !! هـؤلاء صحابـة نبيكـم ﷺ متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر ، والـذي نفسـي بيده إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد ، أو مفتتحو باب ضلالة.

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير .

قال : وكم من مريد للخير لن يصيبه ، إن رسـول الله ﷺ حدثنـا أن قوما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وأيـم الله مـا أدري لعـل أكثرهم منكم ، ثم تولى عنهم .

فقال عمرو بن سلمة : رأينا عامة أولئـك الحلـق يطاعنونـا يـوم النهروان مع الخوارج " [١٠٧].

---

[١٠٧] أخرجه الدارمي (٢٠٤) في المقدمة ، باب في كراهية الأخذ بالرأي .

إن هذا الحديث يمثل درسا تربويا واقعيا ، وهو — أيضا — مقصود لنصل إلى بيت القصيد .

كيف نطلب علم الفقه ؟

يقول الشيخ عبد العزيز القارئ — حفظه الله — في كتابه " **برنامج عملي للمتفقهين** " : وقد وجدنا لمن يطلب الفقه بالجلوس في حلقات أهل العلم أن أحكم طريقة وأسرع وأحسن وسيلة توصله إلى غايته أن يتخذ واحدا من المذاهب الأربعة وسيلة للتفقه في الشريعة أي أن يتمذهب .

ولماذا أخص هذه المذاهب الفقهية الأربعة بالذكر ؟

لأن باقي المذهب الفقهية إما قد اندرس أكثرها ، مثل : الأوزاعية ، السفيانية ، وإما هو غير معتبر كالظاهرية ، فلذلك أحسن وسيلة للتفقه في الشريعة أن تتمذهب بواحد من المذاهب الأربعة ، تختار أحدهم فكلها طرق للتفقه في الشريعة .

وهذه المذاهب الأربعة نقلتها الأمة بعناية فائقة ، وتضافرت على ذلك ، حتى وصلتنا مخدومة متبوعة ، لها أتباع كثيرون ، وتسابق العلماء على خدمتها بالشرح والتأليف ، والتأصيل والتفريغ ، والاستدلال والاستنباط ، وتخريج الأدلة والنصوص ، والترجمة لفقهاء المذاهب ، وبيان أحوالهم ، فشكلت هذه المذاهب مدارس فقهية زاخرة ، غنية بالثروة الفقهية اليافعة المرموقة ،، ولذلك — يا متفقه — إذا اخترت مذهبا منها فاتخذته وسيلة للتفقه في أحكام الشريعة ، فإنك ترتع في دوحات تلك المدرسة ، وتروى غليلك وظمأك من أنهارها وثمارها ، فكل مذهب منها مدرسة فقهية قائمة ،

تضافر العلماء على خدمتها ، فتجد في ظلال هذه المدارس الأربعة الفقهية من وسائل الفقه ما لا تجده في غيرها من المذاهب . **لماذا أقول هذا ؟**
ردا على بعض العلماء المتأخرين ، وهو ـ الشوكاني رحمه الله ـ فإنه دعا المتفقهين إلى التفقه بعيدا عن هذه المذاهب الأربعة ، ولما درست كلام الشوكاني من خلال ما كتب في كتابيه " **أدب الطلب** " و " **القول المفيد في الاجتهاد والتقليد** " ، وجدت أن دعوته هذه كانت رد فعل وقتي للجمود الذي سيطر ، والتعصب الذي استفحل في عصره ـ رحمه الله ـ وهو من أهل القرن الثالث عشر ، خاصة في بلده اليمن ، فأراد الشوكاني أن يكسر من حدة هذين الداءين بهذه الدعوة ، ولكنه لا يعنى هذا أن هذا المنهج الذي يدعو إليه قابل للتطبيق ، أو أنه عند التطبيق نتائجه محمودة ، إنه ليس حلا معقولا ، ولا حلا عمليا أن يتفقه المتفقهون بعيدا عن هذه المدارس الفقهية الكبرى الزاخرة الغنية ، ولذلك فإن الذين حاولوا من المتفقهين أن ينفذوا رأى الشوكاني ـ رحمه الله ـ فروا من كتب المذاهب الأربعة إلى كتب الشوكاني نفسه ، فاقتربوا من التمذهب ، ولكن بمذهب الشوكاني .
وأما الذين حاولوا أن يتفقهوا في الشريعة بواسطة كتب المحدثين ـ رحمهم الله ـ فالغالب أنهم يتشتتون ، ويضيعون.
فعليك ـ يا متفقه ـ أن تتخذ التمذهب وسيلة إلى التفقه في أحكام الشريعة ، وسيلة وليس غاية ، أما إذا وقعت في داء التعصب والجمود ، انقلب التمذهب حينئذ غاية ، وحينئذ لا تصل إلى الغاية التي هي معرفة حكم الله ، تحجبها سحب الجمود ، ويحجبها غبار التعصب ؛ لذلك ليس معنى

اقترحنا عليك — أيها المتفقه — أن تتخذ التمذهب بأحد المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة وسيلة للتفقه ، أننا نبيح لك التعصب "

ثم قال : " فالمبتدئ في أول طريق التفقه لا يستغني أبدا عن تلقي الفقه بواسطة هذه المتون الفقهية ، حتى إذا درب بالفقه واعتاده ، وبدأت ملكته تنشأ عنده ، وبدأت لغته تطبعها بطابعها ، وتكتسب الدربة أيضا على فهم ما في النصوص من أحكام ظاهرة أو خفية ، وأدرك أنواع الدلالات وطرق الاستنباط ، حينئذ يرتقي درجات السلم شيئا فشيئا ، حتى يقدر على الترجيح ، ثم الاجتهاد في حدود المذهب ، فالمجتهدون درجات : مجتهد مسألة ، ومجتهد مذهب ، ومجتهد مقارن بين المذاهب ، ومجتهد إمام مطلق.

فأمور الفقه وشئونه مضبوطة مرتبة ، وسلم التلقي فيه منتظم ، فلا يعقل — مع هذا — أن نقول للمتفقه المبتدئ لا تعبأ بكل ذلك ، وأزح عن طريقك ذلك السلم ، واختصر المسافة بالقفز إلى الاجتهاد ، كن حرا في تفكيرك ، مستقلا في فقهك ؛ فإذا كنا نريد بهذه النصيحة معالجة داء الجمود والتعصب ، فقد داوينا الداء بداء آخر هو الفوضى " انتهى كلامه — رحمه الله تعالى ونفع به —

أيا طالب العلم :

أولا : أقول وقل معي : اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ،

وأرنا الباطل باطلا ، وارزقنا اجتنابه ، اللهم إنا نعوذ بك أن نضل أو نضل ، اللهم آمين .

أظن ــ والله أعلم ــ أن هذه القضية خصوصا في هذا العصر قد تثير زوبعة ، ولكن نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن لا يخاف في الله لومة لائم.

أقول ــ وبالله التوفيق ومنه الإعانة ــ : أننا إذا أردنا أن نستخرج جيلا من العلماء ، ونعيد ابتعاث أحد من الفقهاء ، فلا سبيل إلى ذلك إلا بسلوك طريق السلف ، واقتفاء آثارهم في الطلب ، فها نحن ننظر في علماء سلفنا ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ فلا نرى إلا أتباع المذاهب ، فنقرأ مثلا في العقيدة الطحاوية للإمام الطحاوي الحنفي ، وللبيهقي الشافعي ، ولابن عبد البر المالكي ، ولابن قدامة الحنبلي .

هل تعرف النسفي والزيلعي والعيني الأحناف ؟ وابن العربي وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم والقرطبي وابن رشد المالكيين ؟ والنووي والذهبي والسبكي وابن كثير الشافعية ؟ وابن الجوزي وابن رجب وابن تيمية وابن القيم الحنابلة ؟

هؤلاء علماؤنا وأئمتنا الذين رضينا علمهم ، وتتلمذنا على كتبهم ، فلم لا نرضى طريقتهم وسيرتهم في الطلب ؟!!

كان أحدهم يبدأ في أحد هذه المذاهب بدراسة متن مختصر أولا ، ثم يتدرج في المذهب كتابا كتابا ، وشيخا شيخا حتى يصل إلى درجة الاجتهاد على التفصيل الذي ذكره الشيخ القارئ ــ حفظه الله ــ إنك لا

تجد ما يحدث اليوم في طريقة التلقي عن السلف ، إنك تجد اليوم الشاب يبدأ بالفقه المقارن فيتشتت وينقطع ولا يتعلم .

سنجد اليوم من يقول : إنك تقضي بذلك على جهاد السلفيين في القضاء على التمذهب ، تريد أن نعود إلى الوراء ، وإلى التعصب وإلى الظلام و ..و ...الخ .

وهذه ـ لعمر الله ـ اتهامات جائرة وادعاءات باطلة ، إن كلامنا واضح ومحدد وصريح ، نريد أن نعود بالتعلم إلى طريقة السلف ، فهي التي أنتجت الأئمة ، وأفرزت القادة ، وأفرزت الدعاة ، وجعلتهم قادة وسادة ، حكماء وفقهاء ، علماء وأمراء ، عاملون زهاد ، فلا نقول : التمذهب الممقوت المصحوب بالتعصب والجمود ، لا ... لا ، إننا نقول : تعلم في البداية عن طريق المذهب الذي ترتضى أصوله وشيوخه بشروط ثلاثة:

١) أن هذا التمذهب والترقي في طلبه ليس فرضا ولا شرطا .

٢) عدم التعصب للمذهب .

٣) إذا ظهر الدليل الصحيح الصريح خلاف المذهب وجب الأخذ به .

فأنا أطالب صراحة بالتمذهب للتعلم ، أما عند العمل فعلى الدليل ، وليست هذه طريقة جديدة ، بل هي دعوة الأئمة أنفسهم " **إذا صح الحديث فهو مذهبي** " كلمة تواترت على ألسنتهم جميعا باتفاق ، وعمل الأئمة عليها من بعدهم ، ولكن للأسف صارت المذاهب سوءة ، وصار الانتساب إليها عورة ، وصارت الدعوة المقبولة اليوم عند أكثر الشباب التحرر من

كل شيء ، والتخلص من كل قيد ، فنشأ الشاب الزئبقي المطاط ، الذي لا تجد له منهجا يضبطه ، ولا شيخا يربطه ، ولا مذهبا يحكمه ، ولا شيء بل هو حر في عصر الحرية ، يفعل ما يشاء ، ويأتي ما يريد ، فكان الضياع الذي تراه اليوم .

ماذا أخرجت لنا الصحوة على مدار السنين الطويلة الماضية ؟

كم فقيها ترى ؟ كم مجتهدا تجد ؟ كم عالما جهبذا تشهد ؟

أبدا ، إنما وجدنا فقط ادعاءات ومزايدات ، دعاوى العلم والاجتهاد أكثر من الوجود الحقيقي للعلم النافع، شاهدنا ــ وللأسف الشديد ــ

١) الجرأة على العلماء بالتخطئة والرد والقذف.

٢) التسرع في الفتوى بغير علم ..

٣) الظاهرية المتفشية حتى صارت هي المذهب المحبوب.

٤) الانقطاع وعدم التمام أبدا .

٥) شباب صغير مبتدئ لا يحسن التهجي في الفقه يحكم بين أقوال أهل العلم الفحول ويصوب ويخطئ ويرجح .

فلا تجد ــ ولا تكاد تجد أبدا ــ أحدا منهم أتم كتابا من كتب الفقه أو العقيدة ، وإنما هو باب الطهارة ، وإن زاد فالصلاة ، والصيام كل رمضان ، والزكاة نادرا ، والأقل من انتهى من المجلد الأول من فقه السنة ، أما أكثر من ذلك فلا .

٥) أصبح المشهور فقط فقه المسائل المشهورة..

٦) وأيضا ــ ويا للأسف ــ التعصب الممقوت للمشـــايخ ، ولـــلآراء الموافقة للأهواء ، والموالاة والمعادة عليها.

إن الذين نبذوا المذاهب فرارا من التعصب ، وقعوا في التعصـــب ضـــد المذاهب ، ولذلك لا تكاد تذكر المذاهب إلا بالعيب والنقص..

وما سبق أن ذكرناه من الاحترازات عند التمذهب للتعلم ليس غريب علـــى سلفنا .

خذ مثالا واحدا فقط : في مسألة الوضوء من لحوم الإبل

أنقل قول أحد علماء المالكية وأحد علماء الشافعية ومذهبيـــهما بخـــلاف الحديث :

قال الإمام النووي : وهذا المذهب أقوى دليلا ، (يعني وجوب الوضـــوء من لحوم الإبل) وإن كان الجمهور على خلافه .، وقد أجاب الجمـــهور عن هذا الحديث بحديث جابر : " **كان آخر الأمرين من رســـول الله تـــرك الوضوء مما مست النار**"[١٠٨] ولكن هذا الحديث عام ، وحديث الوضوء من لحوم الإبل خاص ، والخاص مقدم على العام .[١٠٩]

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: وحديث لحم الإبل صحيح مشـــهور ، وليس يقوى عندي ترك الوضوء منه ، وحاول بعضهم أن يتلمس حكمـــة

[١٠٨] أخرجه النسائي (١٨٥) ك الطهارة ، باب ترك الوضوء مما غيرت النار ، وأبو داود (١٩٢) ك الطهارة ، باب في ترك الوضوء مما مست النار ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧٧) .

[١٠٩] شرح صحيح مسلم (٤/٤٩) ط دار إحياء التراث العربي .

لوجوب الوضوء من لحوم الإبل ، ولسنا نذهب هذا المذهب ، ولكن نقـــول كما قال الشافعي في الأم " **إنما الوضوء والغسل تعبد**." [١١٠]

هكذا كان العلماء يدورون مع الدليل حيث دار ، وليس بحسن أن تزهـــد الأمة في المذاهب ، وتشوه صورتها عند الخاصة والعامة ، ويتعمد نشـــر أخطاء المذاهب ، ونقل صورة المتأخرين من متعصبي المذاهب، فلا تكاد تسمع إلا أنه كان يصلى في المسجد الواحد أربع جماعات ، كل مذهـــــب يصلى أصحابه وحدهم مرة ، أو مسائل الزواج بين الشافعية والحنفية ، أو افتراضات المسائل التي لم تقع والجواب عنها.

كل هذه الأخطاء ــ وإن وقعت ــ لا تعني أن نهدم تراث هـــذه الأمة بجرة قلم ، وإنما الإنصاف واجب وإن كان عزيزا ، فـالتعصب نمقته ونجاهده ولا نقر به ، ومعاذ الله أن نقول عن الخطأ صوابــا ، ولا عن الصواب خطأ ،. فالتعصب حرام ، ولكن سواء كـــان للمذهــب أو للأشخاص.

وأما في افتراض المسائل التي لم تقع فهذه رياضات عقلية نافعـــة لمن تفرغ من العلماء ، ولا عليك أن تشغل نفسك بهاــ إن شـــئت ــ وإن شئت فتعلمها فهي مما يفخر به الفقهاء ، ولكن بعد الانتهاء مـــن فـــروض الأعيان والاكتفاء من فروض الكفايات ، وهذه المسائل نافعة في عصـــور ركود الفقه ، وغياب الفقهاء من عصرنا .

فمثلا : افترض فقهاء الحنفية مسائل كـــ :

---

[١١٠] شرح الترمذي (١١٢/١)

من صلى وعلى ظهره قربة فساء ، هل تصح صلاته ؟ قد يضحك بعضنا ويقول : ولا يتصور أن تملأ قربة فساء ..

قلنا : وجدنا الصورة في عصرنا طبيب يحمل في جيبه عينة بول أو براز ، ثم ينسى ويصلى ، وزجاجة العينة في جيبه هل تصح صلاته ؟ ورد الافتراض.

وكذلك مسألة الصلاة على الأرجوحة من المسائل المفترضة قديما ، وهي أيضا مضحكة للصغار فهل يتخيل مجنون يصلى على الأرجوحة ؟

وكان الافتراض منشؤه عدم السجود على الأرض ، وكان جواب المسألة جواب من يسأل عن الصلاة في الطائرة في عصرنا .

أرأيت سعة أفق الفقهاء كيف نفع المتأخرين من أمثالنا !! ، فهذا شيء لا يعاب ، ولا يستحيا منه ، إلا إذا تشوغل به عن مهمات هي أولى ، وأقيمت عليه معارك .

ولذلك نقول: إنه لا داعي لتجريح أصحاب المذاهب ، فإن شئت فتعلم عن طريق أحد المذاهب ، وهو الأولى والأحرى والأصح ، والطريق الموصل للعلم النافع الصحيح ، والسبيل لتخريج الفقهاء والعلماء ، وإلا فالسبيل واسعة ولا عليك ولكن احفظ لسانك ، وكن كيفما شئت ، وانتفع معي بهذه الضوابط الآتية ولا تتعجل في الحكم ولا في الرد :

قواعد وتنبيهات على أصول الأحكام

قد ذكر العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي صاحب حاشية الروض المربع في بداية حاشيته أصول وقواعد وتنبيهات على أصول الأحكام ننقلها هنا لأهميتها.

قال ــ رحمه الله تعالى ــ : قال شيخ الإسلام وغيره :

١) وقول بعض الأئمة كالأربعة وغيرهم ليس حجة لازمة ، ولا إجماعا باتفاق المسلمين ، إذا خرج من خلافهم متوخيا مواطن الاتفاق مهما أمكنه كان آخذا بالحزم ،، وعاملا بالأولى ،، وكذلك إذا قصد في مواطن ، وتوخي ما عليه الأكثر منهم ، والعمل بما قاله الجمهور دون الواحد ، فإنه قد أخذ بالحزم والأحوط والأولى ، ما لم يخالف كتابا ولا سنة .

٢) وكل مسألة دائرة بين نفي وإثبات لا بد فيها من حق ثابت في نفس الأمر أو تفصيل، وإن كان لا يمكن أن يعمل فيها بقول يجمع عليه ، لكن ــ ولله الحمد ــ القول الصحيح عليه دلائل شرعية ، تبين الحق .

٣) وأجمع المسلمون على أن الله أعطى نبيه محمد ﷺ جوامع الكلم، فتكلم بالكلمة الجامعة العامة التي هي قضية كلية ، وقاعدة عامة ، تتناول أنواعا كثيرة ،، وتلك الأنواع تتناول أعيانا لا تحصى ، وبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد ، ولا ينكر ذلك إلا من لم يفهم معاني النصوص العامة وشمولها ،، وقال تعالى : " **اليوم أكملت لكم دينكم** " [المائدة /٣]، وقال ﷺ : " **وتركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك** "[111]

---

[111] أخرجه ابن ماجه (٤٣) في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤١) .

٤) ولما كان كثير من المسائل لا يعرفها كثير من الناس ، أمروا بسؤال أهل العلم بالأحكام ، قال تعالى : " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل /٤٣] ، وقال" ﷺ **ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال**" [112]، فالواجب على المكلف إذ لم تكن فيه أهلية لمعرفة الدليل من الكتاب والسنة سؤال أهل العلم .، وليس المراد التقليد المذموم .، وهو أن يقلد الرجل شخصا بعينه في التحريم والتحليل بغير دليل ، بل المراد الاقتداء الذي لا يعرف الحق إلا به ، وهو الاقتداء بمن يحتج لقوله بكتاب الله وسنة نبيه محمدﷺ ، وليس في الحقيقة بمقلد ، بل متبع لتلك الأدلة الشرعية، مجتهد فيما اختاره .داخل تحت قوله " **واجعلنا للمتقين إماما** " [الفرقان /٧٤] أئمة نقتدي بمن قبلنا ، ويقتدي بنا من بعدنا .

٥) وكل قول صحيح فهو يخرج على قواعد الأئمة الأربعة بلا ريب ، فقد اتفقوا على أصول الأحكام ، .فإذا تبين رجحان قول وصحة مأخذه خرجه على قواعد إمامه .فهو مذهبه ، وقد صرحوا بأن النصوص الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها ولا ناسخ .وكذا مسائل الإجماع لا مذاهب فيها .، وإنما المذاهب فيما فهموا من النصوص ، .أو علمه أحد دون أحد ، أو في مسائل الاجتهاد ونحو ذلك .، واتفقوا على أنه لا يجوز أن يقال : قول هذا صواب دون قول هذا إلا بحجة .

---

[112] أخرجه أبو داود (٣٣٦) ك الطهارة ، باب في المجروح يتيمم ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢٥)

٦) أقوال أهل العلم يحتج لها بالأدلة الشرعية .لا يحتج بها على الأدلة الشرعية ،وتذكر وتورد في المعارضات والالتباس .، والعلم بها من أسباب الفهم عن الله ورسوله .

فإنهم قصدوا تجريد المتابعة للرسول ﷺ، والوقوف مع سنته ، ولم يلتفتوا إلى خلاف أحد ، بل أنكروا على من خالف سنة رسول الله ﷺ، كائنا من كان ، ولا يجوز تعليل الأحكام بالخلاف ، فإن تعليلها بذلك علة باطلة في نفس الأمر ،.فإن الخلاف ليس من الصفات التي يعلق الشارع بها الأحكام في نفس الأمر ، وإنما ذلك وصف حادث بعد النبي ﷺ، وليس يسلكه إلا من لم يكن عالما بالأدلة الشرعية في نفس الأمر ؛ لطلب الاحتياط.

٧) فضل الأئمة الأربعة وكذا غيرهم من أئمة الدين ، ووجوب توقيرهم واحترامهم ، والتحذير من بغضهم وازدرائهم قد تظاهرت به الآيات وصحيح الأخبار والآثار ، وتواترت به الدلائل العقلية والنقلية وتوافقت .

وهم أهل الفضل علينا ، ونقلوا الدين إلينا ، وعول جمهور المسلمين على العمل بمذاهبهم ، من صدر الإسلام إلى يومنا هذا ،.بل لا يعرف العلم إلا من كتبهم ، ولم يحفظ الدين إلا من طريقهم .، فيجب احترامهم وتوقيرهم ، والاعتراف بقدرهم ، وتحسين الظن بهم ، .فهم من خيار الأمة ، وخلفاء الرسول ﷺ، ومعرفة أقوالهم سبب للإصابة ومعرفة الحق ، لا سيما أهل الحديث فإنهم أعظم الناس بحثا عن أقواله ﷺ، وأفعاله ، وتقريراته ، وطلبا لعلمها، وأرغب الناس في اتباعها ، وأبعد الناس عن اتباع ما يخالفها.

ومقدمهم الإمام أحمد بن حنبل الذي قال فيه شيخ الإسلام وغيره : أحمد أعلم من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ، ولا يكاد يوجد له قول يخالف نصا ، كما يوجد لغيره ، لكن لا ندعي فيه ولا في أحد منهم العصمة ، ولا نتخذهم أربابا من دون الله ، وما وجد في بعض كتبهم من خطأ فمردود على قائله ، مع إحسان الظن به .
والفقهاء المنتسبون إليهم لم يختاروا مذاهبهم عند عدم الدليل إلا عن اجتهاد لا عن مجرد تقليد ، كما ظنه من لم يحقق النظر في مصنفاتهم ، ومع ذلك فليسوا بمعصومين. "[١١٣] .
ثم أشار إلى مسألتنا هذه ـ أعني التمذهب ـ وبين القول الفصل فيها ، وأن التمذهب غير واجب ، كما أن اتباع الهوى غير مشروع ، وإنما ندور مع الدليل حيث دار ، وليس معنى هذا أن تهجر المذاهب كما يظن بعضنا ، إذ فرق بين كونه غير واجب وبين القول بحرمته، وإنما نقول : إن التمذهب للناشئ في الطلب أمر جيد يضبط له العلم ، ثم عندما ترسخ قدمه ، ويعرف الحق بأدلته ، فإنما يلزمه الدليل ، لاسيما والأمر قد يشتبه على الكثيرين ، مع الاختلاف الأصولي حول بعض الأدلة ، ناهيك عن الاختلاف في الدلالات وتعيين بعضها دون الآخر .
يقول الشيخ عبد الرحمن بن قاسم النجدي : " ولا يجب التزام مذهب معين إلا قول رسول الله ﷺ، ومن التزام مذهبا معينا ثم فعل خلافه من

---

[١١٣] حاشية الروض المربع ص ١١ .

غير تقليد لعالم آخر أفتاه ، ولا استدلال بدليل يقتضي خلاف ذلك ، ومن غير عذر شرعي يبيح له فعله ، فإنما يكون متبعا لهواه ، فإنه ليس لأحد أن يعتقد الشيء واجبا أو محرما ، ثم يعتقد الواجب حراما والمحرم واجبا بمجرد هواه ، كمسألة الجد ، وشرب النبيذ ، وأما إذا تبين له ما يوجب رجحان قول على قول بالدليل ، أو رجحان مفت فيجوز بل يجب ، والعاجز إذا اتبع من هو من أهل العلم والدين ، ولم يتبين له أن قول غيره أرجح ، فهو محمود مثاب ، والله الموفق للصواب."

إخـوتـاه ..

لقد كان من الإيجابيات التي تذكر للعمل الإسلامي المعاصر أنه كسر حاجز التقليد ، وحمل على عاتقه تجديد العمل بالأدلة الشرعية ، وأزال الغبار عن كتب السنة بعد أن أوشكت أن تكون نسيا منسيا ، وقد يكون من بين الآثار الجانبية لهذا العمل بعض الغلو الذي تتسم به غالبا ردود الأفعال ، فإذا كان بعض الناس يوجبون التقليد ، حتى على المتخصصين من أهل العلم ، جاء من أبناء العمل الإسلامي من يحرمه حتى على العامة.

وإذا كان الناس لا يعرفون أدلة على الفقه إلا مقالات الأئمة ، فقد جاء من أهل العمل الإسلامي من يرد مقالات الأئمة كافة ويقول : " **هم رجال ونحن رجال** "، ويشترط لصحة الفتوى أن تكون مصحوبة بالدليل، وإلا فهي رد ، مهما كانت مرتبة السائل ومرتبة المسئول.

والذي عليه سلف الأمة ـ وهو قول الجمهور ـ أن التقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد ، قال تعالى : **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر** " [النحل /٤٣-٤٤]فهذه الآية نص وجوب رجوع الجاهل إلى أهل الذكر، وسؤالهم عما لا يعلمه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة ، والتقليد جائز في الجملة ، لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرمون التقليد ، ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرمون الاجتهاد ، وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد ، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد " .[114]

قال ابن قدامة : " وأما التقليد في الفروع فهو جائز إجماعا ، فكانت الحجة فيه الإجماع ؛ ولأن المجتهد في الفروع إما مصيب وإما مخطئ مثاب غير مأثوم ، .. فلهذا جاز التقليد فيها بل وجب على العامي ذلك "[115]

وقال أيضا : " وذهب بعض القدرية إلى أن العامة يلزمهم النظر في الدليل في الفروع أيضا ، وهو باطل بإجماع الصحابة ، فإنهم كانوا يفتون العامة ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد ، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم .

---

[114] مجموع الفتاوى (٢٠/٢٠٢) .

[115] روضة الناظر ص٣٨٢ ط جامعة الإمام محمد بن سعود .

ولأن الإجماع منعقد على تكليف العامي الأحكام ، وتكليفه رتبة الاجتهاد يؤدي إلى انقطاع الحرث والنسل ، وتعطيل الحرف والصنائع ، فيؤدي إلى خراب الدنيا.

ثم ماذا يصنع العامي إذا نزلت به حادثة ، إن لم يثبت لها حكم إلى أن يبلغ رتبة الاجتهاد فإلى متى يصير مجتهدا ، ولعله لا يبلغ ذلك أبدا ، فتضيع الأحكام ، فلم يبق إلا سؤال العلماء ، وقد أمر الله تعالى بسؤال العلماء في قوله تعالى : " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل /٤٣][١١٦]

ويقول الرازي في المحصول : " يجوز للعامي أن يقلد المجتهد في فروع الشرع خلافا لمعتزلة بغداد " ثم استدل على ذلك بقوله : " لنا وجهان : الأول : إجماع الأمة قبل حدوث المخالف ؛ لأن العلماء في كل عصر لا ينكرون على العامة الاقتصار على مجرد أقاويلهم ، ولا يلزمونهم أن يسألوهم عن وجه اجتهادهم "[١١٧]

يقول محمد الأمين الشنقيطي : " ولم يخالف في جواز التقليد للعامي إلا بعض القدرية ، والأصل في التقليد قوله تعالى : " **ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** " [التوبة/١٢٢] ، وقوله تعالى :" **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل /٤٣] وإجماع الصحابة عليه "[١١٨]

---

[١١٦] روضة الناظر ص (٣٨٣) .

[١١٧] المحصول (١٠١/٦) ط جامعة الإمام محمد بن سعود .

[١١٨] مذكرة أصول الفقه ص (٣١٥) ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

فلابد للعامي الذي لم يبلغ رتبة الاجتهاد أن يتبع قول إمام من الأئمة حتى لا يتفرد بفهم ليس له سلف في مسألة من المسائل ، وإلا كان مبتدعا في الدين ، ومتبعا لغير سبيل المؤمنين في هذه المسألة ، قال تعالى : " **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** " [النساء/١١٥]

حكم التقليد

إن التقليد منه ما هو مشروع ، ومنه ما هو ممنوع .

فالتقليد المشروع : هو عمل العامي بمذهب المجتهد دون معرفة دليله معرفة تامة .، وقد قال بمشروعية هذا النوع من التقليد جمهور العلماء..

أما التقليد الممنوع : فهو التقليد فيما قامت عليه الأدلة على خلافه ، أو تقليد إمام بعينه دون سواه ، بحيث تقبل جميع أقواله ، وإن خالف بعضها الحق ، وترد جميع أقوال غيره ، وإن شهدت لها النصوص ، وقامت على صوابها البينة ، أو تقليد القادر على الاستنباط والنظر .، وإلى هذه الأنواع تنصرف جميع الأدلة التي استشهد بها جمهور العلماء على بطلان التقليد .

ويقول الشيخ الدهلوي ــ رحمه الله ــ : إن المذاهب الأربعة المحررة قد اجتمعت الأمة ، أو من يعتد به منها على جواز تقليدها إلى يومنا هذا ، وفي ذلك من المصالح ما لا يخفي ، لا سيما هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم جدا ، وأشربت النفوس الهوى ، وأعجب كل ذي رأى برأيه .

ويقول الشيخ حسن البنا ــ رحمه الله ــ : ولكل مسلم ما لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفروعية ، أن يتبع إماما من أئمة الدين ، ويحسن به

مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل ، متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته ، وأن يستكمل نقصه العلمي — وإن كان من أهل العلم — حتى يبلغ درجة النظر "

<u>هل يستحسن ذكر الدليل للمستفتي ؟</u>

نعم يستحسن ذكر الأدلة للمستفتي إذا كان أهلا لفهمها ، وإن كان ذلك ليس بشرط :

يقول ابن القيم — رحمه الله — : ينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحكم ومأخذه ما أمكنه من ذلك ولا يلقيه إلى المستفتي ساذجا مجردا عن دليله ومأخذه ، فهذا لضيق عطنه وقلة بضاعته من العلم "[١١٩]

وقال في موضع آخر : " ينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النص مهما أمكنه ، فإنه يتضمن الحكم والدليل مع البيان التام ، فهو حكم مضمون له الصواب ، متضمن للدليل عليه في أحسن بيان ، وقول الفقيه المعين ليس كذلك ، وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحري ".[١٢٠]

وأما أن ذلك ليس بشرط فمن أدلته ما يلي :

١) الإجماع الذي نقله غير واحد من الأصوليين : على أنه لم يزل أهل العلم يستفتون فيفتون ويتبعون من غير إبداء المستند ، وأن ذلك قد شاع وذاع ، ولم ينكر ، فكان إجماعا.

---

[١١٩] إعلام الموقعين (١٦١/٤) ط دار الجيل — بيروت

[١٢٠] المرجع السابق (١٧٠/٤) .

قال الآمدي في الإحكام : " وأما الإجماع فهو أنه لم تزل العامة في زمن الصحابة والتابعين قبل حدوث المخالفين يستفتون المجتهدين ، ويتبعونهم في الأحكام الشرعية ، والعلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر الدليل ، ولا ينهونهم عن ذلك من غير نكير ، فكان إجماعا على جواز اتباع العامي للمجتهد مطلقا "[١٢١]

وفي المعتمد لأبى الحسين البصري : " والدليل على ذلك إجماع الأمة قبل حدوث المخالف فان الصحابة ومن بعدهم كانوا يفتون العامة في غامض الفقه ، ولا يعرفونهم أدلتهم ، ولا ينبهونهم على ذلك ، ويلزمونهم سؤالهم إياهم ، ولا ينكرون عليهم اقتصارهم على مجرد أقاويلهم "[١٢٢]

بل يذهب الإمام الشاطبي في الموافقات إلى أبعد من هذا فيقول : "فتاوي المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين ، والدليل عليه أن وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء ، إذ كانوا لا يستفيدون منها شيئا ، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم ، ولا يجوز ذلك لهم البتة ، وقد قال تعالى : " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل /٤٣] ، والمقلد غير عالم ، فلا يصح له إلا سؤال أهل الذكر ، وإليهم مرجعه في أحكام الدين على الإطلاق ، فهم إذن القائمون له مقام الشارع ، وأقوالهم قائمة مقام الشارع "[١٢٣]

---

[١٢١] الإحكام للآمدي (٢٣٥/٤) ط دار الكتاب العربي .

[١٢٢] المعتمد لأبي الحسين البصري (٣٦١/٢) ط دار الكتب العلمية .

[١٢٣] الموافقات (٢٩٣/٤) ط دار المعرفة – بيروت

<u>أيها الأحبة في الله ..</u>

إن المتتبع لكتب الحديث يرى استدلال التابعين بأقوال من قبلهم من التابعين ، واستدلال هؤلاء بأقوال وأعمال من قبلهم من الصحابة ، وهو استدلال بأقوال وأعمال لم تذكر مع أدلتها ، فدل ذلك على عدم اشتراط ذكر الأدلة لصحة الفتوى ، أو جواز العمل بها ، بل إننا لو تتبعنا آثار أئمة السلف، وأشد الناس إنكارا على التقليد ، لوقفنا على ما لا يحصى من الفتاوى العارية عن الأدلة .

إن إيراد الأدلة للعامي لا يخرجه عن دائرة التقليد من الناحية الفقهية البحتة .؛ لأن المفتي يورد الدليل موردا يجعله منتجا للحكم الذي قال به ، وذهب إليه ، ولا يملك المستفتي إلا تقليده في هذا الفهم ، فالتقليد كما يكون في الحكم يكون في فهم دليل الحكم ، ومجرد المعرفة بالدليل لا تخرج عن ربقة التقليد ، ذلك أن المعرفة المعتبرة بالدليل ، والتي تخرج عن نطاق التقليد ، هي التي يغلب معها الظن بحصول المقتضي وعدم المانع..

أما ما ورد من عبارات الأئمة في النهي عن تقليدهم ــ حتى يحتاط المرء لدينه ــ فهي حق ، ويجب أن تنزل على منازلها الصحيحة .، فهي تنهى الناس عن اتباعهم فيما قامت الأدلة على خلافه ، وهي تنهى أمثالهم من المجتهدين عن تقليدهم ، لأن عليهم أن يأخذوا من حيث أخذوا ، وتنهى أكابر أصحابهم وتلاميذهم من العلماء عن تقليدهم كذلك ، حثا لهم على دوام النظر في مدارك أقوالهم ، ليعلموا ــ بما تبين لهم ــ أنه حق ، حسبما

يقتضيه اجتهادهم ، وضمانا لحيوية الفقه الإسلامي ، وعدم إصابته بالجمود ، أو تخلفه عن الوفاء بالمصالح المتجددة.

ومما يدل على هذا التخصيص ، وعلى أن العامة غير مخاطبين بهذه المقالات ، ما نقل عن هؤلاء الأئمة أنفسهم ، وغيرهم من أهل العلم ، من ذلك :

ما قاله الإمام مالك رحمه الله : " يجب على العوام تقليد المجتهدين في الأحكام ، كما يجب على المجتهدين الاجتهاد في أعيان الأدلة "

وما قاله ابن عبد البر ــ بعد ذكره لبطلان التقليد ــ : " وهذا كله في غير العامة ، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة بها ، لأنها تبين موقع الحجة ، ولا تصل كذلك بعدم الفهم إلى علم"...

ثم قال : " ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها ، وأنهم المرادون بقوله تعالى: " **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " [النحل/٤٣]، وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد قائده ، وكذلك لم يختلف العلماء في أن العامة لا يجوز لها الفتيا ، وذلك ــ والله أعلم ــ لجهلها بالمعاني التي فيها يجوز التحليل والتحريم ، والقول في العلم " .

وما قاله العز بن عبد السلام ــ بعد إنكاره التقليد وبيان بطلانه ــ : " ويستثنى من ذلك العامة ، فإن وظيفتهم التقليد ؛ لعجزهم عن التوصل إلى معرفة الأحكام بالاجتهاد ، بخلاف المجتهد فإنه قادر على النظر المؤدي إلى الحكم"[١٢٤] .

---

[١٢٤] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/١٣٥) ط دار الكتب العلمية .

وما قاله ابن القيم بعد أن ساق في إبطال التقليد نحوا من ثمانين دليلا : " أما من قلد فيما ينزل به من أحكام شريعته عالما يتفق له على علمه فيصدر في ذلك عما يخبره فمعذور ؛ لأنه قد أدى ما عليه ، وأدى ما لزمه فيما نزل به لجهله ، ولا بد له من تقليد عالم فيما جهله لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره في القبلة ؛ لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك "[١٢٥]

وقال في موضع آخر : " ولا ندعي أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة من مسائل الدين ، دقه وجليه ، وإنما أنكرنا ما أنكره الأئمة ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين ، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ من نصب رجل واحد وجعل فتاويه بمنزلة نصوص الشارع ، بل تقديمها عليه ، وتقديم قوله على أقوال من بعد رسول الله ﷺ من جميع علماء أمته ، والاكتفاء بتقليده عن تلقي الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة ، وأن يضم إلى ذلك أنه لا يقول إلا بما في كتاب الله وسنة رسوله "[١٢٦].

دعوة سلفية محضة

وهذا الرأي الذي ذهبنا إليه ــ من دراسة الفقه على أحد المذاهب ــ ليس بدعا من القول ، ولا محدثا من الرأي ، وشاذا بين الاجتهادات ،

---

[١٢٥] إعلام الموقعين (٢/١٩٩)

[١٢٦] إعلام الموقعين (٢/٢٦٣) .

فمعظم العلماء على الساحة اليوم فضلا عما ذي قبل ينصحون بهذا ، إن لم أقل كلهم ، فهذه الطريقة كما ذكرت أسلم و أعلم و أحكم ..

فهذا الشيخ الألباني شيخ الصحوة ـ رحمه الله ـ يذهب هذا المذهب ، ويتبنى هذا الرأي ، فيقول ـ رحمه الله ـ فيما نقله عنه محمد عيد عباسي ، في كتاب " **بدعة التعصب المذهبي** " : " ومن الجدير بالذكر أن هذا هو رأى أستاذنا حفظه الله نفسه ، فقد ذكر أكثر من مرة ، أن الواجب على الناس في زماننا هذه ، أن يبدءوا بتعلم الفقه عن طريق أحد المذاهب الأربعة ، ويدرسوا الدين من كتبها ، ثم يتدرجوا في طريق العلم الصحيح ، بأن يختاروا كتابا من كتب مذهبهم ، ككتاب المجموع للنووي عند الشافعية ، وكتاب فتح القدير لابن الهمام عند الحنفية ، وغيرها من الكتب التي تبين الأدلة ، وتشرح طريق الاستنباط ، ثم يتركوا كل قول ظهر لهم ضعف دليله وخطأ استنباطه ، ثم يتدرجوا خطوة ثالثة بأن ينظروا في كتب المذاهب الأخرى ، التي تناقش الأدلة أيضا ، وتبين طريق الاحتجاج بها ، ويأخذوا من هذه الكتب ما ظهر لهم صحته وصوابه ، وهكذا فيرى شيخنا أن هذا هو السبيل الصحيح الممكن سلوكه في هذا الزمان ، لأن سلوك السبيل الواجبة التي كان عليها السلف الصالح طفرة ، غير ممكن اليوم ، لأنه لا يوجد في الناس علماء مجتهدون ، يعلمونهم فقه الكتاب والسنة ، ولذلك فليس أمام الناس إلا أحد سبيلين : فإما أن يتركوا دون تعليم ولا تفقيه ويخبطوا في دينهم خبط عشواء ، وإما أن يتعلموا دينهم ويتفقهوا

في أحكامه عن طريق أحد المذاهب الأربعة ، ولا شك أن هذا الطريق هو أخف ضررا ، وأقل شرا من الطريق الأول ، ولذلك ننصح به ونؤيده "

يقول الشيخ العباسي في موضع آخر : " والخلاصة أننا لا نمانع في الوقت الحاضر من دراسة الفقه على الطريقة المذهبية ، ولكن بشرط واحد وهو عدم التعصب ، فالتعصب المذهبي هو الذي نحاربه ونكرهه "

خلاصة الكلام

بمنتهى الوضوح ولا يلتبس الكلام على أحد من الناس نقول بعون الله وتوفيقه : التمذهب للتعلم أمر ضروري في بداية الطريق ، مع الأخذ بأنه لا يقدم على النص الجلي شيء ، فطلب العلم بالتدرج للوصول إلى فقيه مجتهد ينفع الله به الأمة لا سبيل إليه إلا بطريقة تلقي العلم عند علماء السلف ، وهي على مذهب من المذاهب الأربعة .

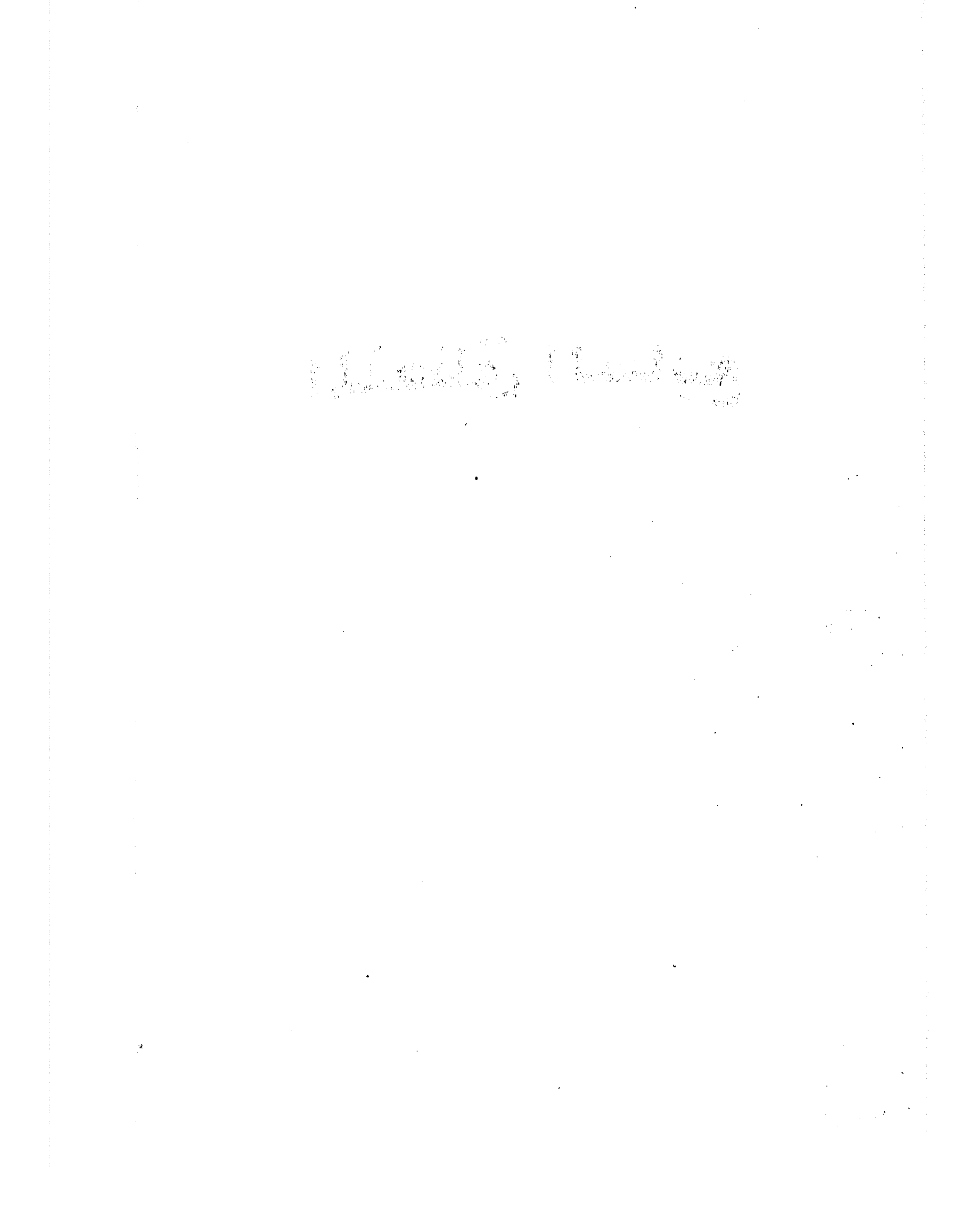
في المرحلة الأولى : يبدأ بحفظ متن مجرد عن الدليل .

وفي المرحلة الثانية : ينتقل إلى كتاب أكبر يذكر أكثر من رأي في المذهب ، والترجيح بينها .

ثم المرحلة الثالثة : اقتران الأقوال بالأدلة ، ومعرفة طريقة الاستنباط ومناقشة الأدلة .

ثم المرحلة الرابعة ــ وهي الأخيرة ــ : ذكر أقوال أهل العلم في المسألة والترجيح بينها ، هذه هي طريقة السلف في التعلم .


المنطلق السابع
ممن نطلب العلم ؟



المنطلق السابع

ممن نطلب العلم ؟

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " **إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ..**"[١٢٧]

وفي هذا دليل على أن العلماء هم مفاتح العلم بلا ريب .[١٢٨]

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : " وفي حديث أبي أمامة من الفائدة الزائدة " أن بقاء الكتب بعد رفع العلم بموت العلماء لا يغني من ليس بعالم شيئا " فإن في بقيته " فسأله أعرابي فقال : يا نبي الله كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف ، وقد تعلمنا ما فيها وعلمناها أبناءنا ونساءنا وخدمنا ، فرفع إليه رأسه وهو مغضب فقال : وهذه اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف ، لم يتعلقوا منها بحرف فيما جاءهم به أنبياؤهم " ولهذه الزيادة شواهد " [١٢٩]

قال الإمام الشاطبي : " وإن كان الناس قد اختلفوا هل يمكن حصول العلم دون معلم أم لا ؟ .

---

[١٢٧] متفق عليه ، أخرجه البخاري (١٠٠) ك العلم ، باب كيف يقبض العلم ، ومسلم (٢٦٧٣) ك العلم ، باب رفع العلم وقبضه .

[١٢٨] وأيم الله هل من بلية أعظم من فقد العلماء في عصرنا ؟! بعض الناس إلى الآن لم يشعر بحجم البلاء بعد أن مات الفحول الأعلام ، ولو تدبر لعلم أن مشكلتنا الأولى غياب العالم الرباني من الساحة ، فلو وجد لحلت كثير من مشاكلنا ، ولكن قل فندر ثم لم يوجد ، فاللهم إليك المشتكى .

[١٢٩] فتح الباري (١٣/٢٩٩-٣٠٠) ط دار الريان .

فالإمكان مسلم ، ولكن الواقع في مجارى العادات أن لابد من المعلم، وهو متفق عليه في الجملة .." ثم قال : "وقد قالوا إن العلم كان في صدور الرجال ، ثم انتقل إلى الكتب ، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال، وهذا الكلام يقضى بأن لا بد في تحصيله من الرجال "[١٣٠]

أيها المتفقه :

لابد من معلم ، قال الإمام الشافعي : **شر البلية تشيخ الصحيفة** " يعني الذين تلقوا علمهم من الصحف ــ أي الكتب ــ .

وقال بعض السلف : من كان الشيخ كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه .

وقال أبو زرعة ــ رحمه الله ــ : لا يفتي الناس صحفي ، ولا يقرئهم مصحفي . وكان ثور بن يزيد يقول : لا يفتي الناس الصحفيون .[١٣١]

فلابد لك من شيخ متقن ، ومرب حاذق ، وصاحب ناصح ، فهذه ثلاثة لو اجتمعت في واحد لكان خيرا لك ، وإن كانا اثنين ، وإلا فلزوم الثلاثة هو المحتم .

أيها المتفقه :

---

[١٣٠] الموافقات (٩٢/١) .

[١٣١] الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٩٧/٢) .

الطريق وعرة ، والمسافة طويلة ، والوحدة موحشة ، وقطاع الطريق كثير ، فلابد لك في طريقك إلى الله من دليل وصاحب ، فإن " الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب " [١٣٢].

ولكن ـ إياك أن تصحب في طريقك الجهال ، فتضيع أو الذئاب فتأكلك .

قال بعض السلف : لا تأمنن فاسقا ، فإنه خان أول منعم عليه .

قال الإمام الشاطبي : " من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام ... "

ثم قال : " وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات .. وهى ثلاث :

إحداها : العمل بما علم ، حتى يكون قوله مطابقا لفعله ، فإن كان مخالفا له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه ، ولا أن يقتدى به في علم " أهـ

وهذا مما يثير الحزن والأسف ، فقد صار هؤلاء من الندرة بمكان ، نعوذ بالله أن نذكر به وننساه ، ونعوذ به من النفاق وأهله ، ونعوذ به من فتنة علماء السوء .

---

[١٣٢] أخرجه الترمذي (١٦٧٤) ك الجهاد ، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده ، وقال : حسن صحيح ، وأبو داود (٢٦٠٧) ك الجهاد ، باب في الرجل يسافر وحده . ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٤)

ومعني الحديث : أن الشيطان يطمع في الواحد والاثنين كما يطمع فيه اللص والسبع ، فإذا خرج وحده فقد تعرض للشيطان والسبع واللص، فكأنه شيطان ، فضلا عن مخالفته النهي عن التوحد في السفر لما فيه من التعرض للآفات التي لا تندفع إلا بالكثرة، وفوات الجماعة، وعسر التعيش، ولعل الموت يدركه فلا يجد من يوصي إليه بإيفاء ديون الناس وأماناتهم وسائر ما يجب .

قال علي رضي الله عنه : **تعلموا العلم تعرفوا بـــه ، واعملـــوا بـــه تكونوا من أهله ، فإنه سيأتي بعد هذا زمان لا يعرف فيــــه تســـعة عشرائهم المعروف ، ولا ينجو منه إلا كل نومـــــة ، فـــأولئك أئمـــة الهدى ومصابيح العلم ، ليسوا بالمساييح ، ولا المذاييع البذر .**[١٣٣]

والثانية : أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم[١٣٤] ؛ لأخذه عنهم ، وملازمته لهم ، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلـــك ، وهكذا كان شأن السلف الصالح ، فأول ذلك ملازمة الصحابـــــة ــ رضى الله عنهم ــ لرسول الله ــ ﷺ ــ وأخذهم بأقوالــــه وأفعالــــه ، واعتمادهم على ما يرد منه ، كائنا ما كان ، وعلى أي وجه صدر . فهم فهموا مغزى ما أراد به أولا ، حتى علموا وتيقنوا أنه الحق الذي لا يعارض ، والحكمة التي لا ينكسر قانونها ، ولا يحوم النقص حول حمى كمالها ، وإنما ذلك بكثرة الملازمة ، وشدة المثابرة .

وتأمل قصة عمر بن الخطاب في صلح الحديبية **حيث قال : يا رسول الله ألسنا على حق وهم على باطل ؟**

قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة ، وقتلاهم في النار .

قال : بلى . قال : ففيم نعطى الدنية في ديننا ، ونرجع ولما يحكـم الله بيننا وبينهم ؟

---

[١٣٣] النومة : الغافل عن الشر ، المذاييع البذر : كثير الكلام ، المساييح : الساعي بالنميمة.

[١٣٤] وإني لأقف مليا أمام عبارة الشاطبي " **رباه الشيوخ** " وأتأسف على حال شباب الصحوة ، فيا عبد الله اتق الله وخذ العلم كما أخذه السلف ، وإلا فهيهات أن تجني لبذرك ثمرة حقيقية .

قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ، ولم يضيعني الله أبدا .

فانطلق عمر ، ولم يصبر متغيظا ، فأتى أبا بكر فقال له مثل ذلك .

فقال أبو بكر : إنه رسول الله ، لم يضيعه الله أبدا .

قال : فنزل القرآن على رسول الله ﷺ بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه .

فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟!

قال : نعم فطابت نفسه ورجع .[١٣٥]

فهذا من فوائد الملازمة ، والانقياد للعلماء ، والصبر عليهم في مواطن الإشكال ، حتى لاح البرهان للعيان .

وفيه قال سهل بن حنيف يوم صفين : " **أيها الناس !! اتهموا رأيكم؛ والله لقد رأيتني يوم أبى جندل ولو أني أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته** "[١٣٦]

وإنما قال ذلك لما عرض لهم فيه من الإشكال ، وإنما نزلت سورة الفتح بعد ما خالطهم الحزن والكآبة لشدة الإشكال عليهم ، والتباس الأمر ، ولكنهم سلموا وتركوا رأيهم حتى نزل القرآن ، فزال الإشكال والالتباس .

وصار مثل ذلك أصلا لمن بعدهم ، فالتزم التابعون في الصحابة سيرتهم مع النبي ﷺ حتى فقهوا ، ونالوا ذروة الكمال في العلوم

---

[١٣٥] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣١٨٢) ك الجزية ، باب إثم من عاهد ثم غدر ، ومسلم (١٧٨٥) ك الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية في الحديبية .

[١٣٦] متفق عليه أخرجه البخاري (٣١٨١) ك الجزية ، باب إثم من عاهد ثم غدر ، ومسلم في الموضع السابق

الشرعية ، وحسبك من صحة هذه القاعدة أنك لا تجد عالما اشـــتهر في الناس الأخذ عنه إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك .

وقلما وجدت فرقة زائغة ، ولا أحدا مخالفا للسنة ، إلا وهو مفـــارق لهذا الوصف . وبهذا الوجه وقع التشنيع على ابن حزم الظـــاهري ، وأنه لم يلازم الأخذ عن الشيوخ ، ولا تأدب بآدابهم ، وبضد ذلك كان العلماء الراسخون كالأئمة الأربعة وأشباههم " أهـ

<u>والثالثة : الاقتداء بمن أخذ عنه ، والتأدب بأدبه</u>

كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن ، وبهذا الوصف امتاز مالك عن إضرابه ، أعنـــى بشدة الاتصاف به ، وإلا فالجميع ممن يهتدي به في الديـــن ، كذلـــك كانوا ، ولكن مالكا اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى " .

فلما ترك هذا الوصف (أي اقتداء كل تلميذ بشيخه تماما فـــي نعتـــه ووصفه وطريقته وسمته) رفعت البدع رؤوسها ؛ لأن ترك الاقتـــداء دليل على أمر حدث عند التارك أصله اتباع الهوى "

وتأمل معي ــ أخي في الله ــ هذه الفقرة للإمام مالك رضي الله عنـــه في الاتباع فإنها نافعة :

" كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلـــك على جلسائه فقيل له يوما في ذلك : فقال : لو رأيتم ما رأيـــت لمـــا أنكرتم علي ما ترون ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكـــان ســـيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه ، ولقد كنت

أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ أصفر وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال إما مصليا ، وإما صامتا ، وإما يقرأ القرآن ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل ، ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه في فمه هيبة منه لرسول الله ﷺ .

ولقد كنت آتي عمر بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع ؛ ولقد رأيت الزهريَ وكان من أهنأ الناس وأقربهم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته ؛ ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه"[١٣٧].اهـ

هذا تأسيهم بمن قبلهم وإنما استفادوا ذلك من طول الملازمة وحسن التأسي .

وبطبيعة الحال لا يشترط السلامة من الخطأ البتة ؛ لأن فروع كل علم إذا انتشرت، وانبنى بعضها على بعض اشتبهت ، فلا يقدح في كونه عالما ، ولا يضر في كونه إماما مقتدى به أن يخطئ ، أو أن تذهب عنه بعض المسائل ، ولكن كلما قصر عن استيفاء الشروط

---

[١٣٧] الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٤٢/٢)

نقص عن رتبة الكمال بمقدار ذلك النقصان ، فــلا يســتحق الرتبــة الكمالية ما لم يكمل النقص .

قال الإمام الذهبي : " ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحــه وورعــه واتباعه يغفر له الله ولا نضلله ولا نطرحه وننسى محاسنه ، نعــم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك "[١٣٨]

طرق التعلم

قال الإمام الشاطبي : " وإذا ثبت أنه لا بد من أخذ العلم عــن أهله فلذلك طريقان :

أحدهما : المشافهة . وهى أنفع الطريقين وأسلمهما ؛ لوجهين :

الأول : خاصية جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم ، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء ؛ فكم من مسألة يقرؤها المتعلــم فــي كتــاب ، ويحفظها ويرددها على قلبه فلا يفهمها ، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمــها بغتة ، وحصل له العلم بها بالحضرة ، وهذا الفهم يحصل إما بــأمر عادي من قرائن أحوال ، وإيضاح موضع إشكال ، لم يخطر للمتعلــم ببال ، وقد يحصل بأمر غير معتاد ، ولكن بأمر يهبه الله للمتعلم عنــد مثوله بين يدي المعلم ، ظاهر الفقر ، بادي الحاجة ، إلى مــا يلقــى إليه.

---

[١٣٨] سير أعلام النبلاء (٥/٢٧١)

وهذا ليس بنكر ، فقد نبه عليه الحديث الذي جاء " أن الصحابة أنكروا أنفسهم عندما مات رسول الله ﷺ[١٣٩]" وحديث حنظلة الأسيدى: حين شكا إلى رسول الله ﷺ أنهم إذا كانوا عنده وفى مجلسه كانوا على حالة يرضونها ، فإذا فارقوا مجلسه زال ذلك عنهم.
فقال رسول الله ﷺ : "**لو أنكم تكونون كما تكونون عندى لأظلتكم الملائكة بأجنحتها** "[١٤٠]

وقد قال عمر بن الخطاب : " **وافقت ربى في ثلاث** "[١٤١] وهي من فوائد مجالسة العلماء ، إذ يفتح للمتعلم بين أيديهم مالا يفتح له دونهم، ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلمهم ، وتأدبهم معه، وإقتدائهم به .
فهذا الطريق نافع على كل تقدير ، وقد كان المتقدمون لا يكتب منهم إلا القليل ، وكانوا يكرهون ذلك ؛ وقد كرهه مالك فقيل له فما نصنع؟ قال : تحفظون وتفهمون ، حتى تستنير قلوبكم ، ثم لا تحتاجون إلى الكتابة .
وحكى عن عمر بن الخطاب كراهية الكتابة ، وإنما ترخص الناس في ذلك عندما حدث النسيان ، وخيف على الشريعة الاندراس .

---

[١٣٩] انظر حديث أنس عند الترمذي (٣٦١٨) ك المناقب عن رسول الله ، باب في فضل النبي ، وقال : غريب صحيح .

[١٤٠] أخرجه الترمذي (٢٤٥٢) ك صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ، باب ما جاء في صفة أواني الحوض ، وقال : حسن غريب .

[١٤١] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٤٠٢) ك الصلاة ، باب ما جاء في القبلة ، ومسلم (٢٣٩٩) ك فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر .

الطريق الثاني : مطالعة كتب المصنفين ، ومدوني الدواوين ، وهو — أيضا — نافع في بابه بشرطين :

الأول : أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ، ومعرفة اصطلاحات أهله ما يتم له به النظر في الكتب ؛ وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء ، أو مما هو راجع إليه ، وهو معنى قول من قال: " كان العلم في صدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب ومفاتحه بأيدي الرجال " .

والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا دون فتح العلماء ، وهو مشاهد معتاد . **والشرط الثاني** : أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد ، فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين .

وأصل ذلك التجربة والخبر : أما التجربة فهو أمر مشاهد في أي علم كان ؛ فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما بلغه المتقدم ، وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي أو نظري ، فأعمال المتقدمين — في إصلاح دنياهم ودينهم — على خلاف أعمال المتأخرين ؛ وعلومهم في التحقيق أقعد .

فتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين ، والتابعون ليسوا كتابعيهم ، وهكذا إلى الآن ، ومن طالع سيرهم وأقوالهم وحكاياتهم أبصر العجب في هذا المعنى .

وأما الخبر ففي الحديث : " **خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** " [١٤٢].

وفي هذا إشارة إلى أن كل قرن مع ما بعده كذلك .

وروى عن النبي ﷺ: " **أول دينكم نبوة ورحمة ، ثم ملك ورحمة ، ثم ملك وجبرية ، ثم ملك عضوض** "[١٤٣] ولا يكون هذا إلا مع قلة الخير، وتكاثر الشر شيئا بعد شيء .

أخي الحبيب ..

هكذا فاطلب العلم من أهله المتحققين به ، واصبر على ذلك ، ولا تتعجل ، ابحث عن العلماء ، واجلس بين أيديهم ، وخذ من هديهم وسمتهم وأدبهم ، والزمهم السنين الطوال ، فطول الملازمة مهم ونافع ، وارحل إلى العلماء ، ولا تقنع بسماع شريط ، أو قراءة كتاب، وخذ هذه الآثار تستثيرك إن كنت من الرجال .

أولئك الناس إن عدوا وإن ذكروا

ومن سواهم فلغو غير معدود

ذكر طائفة من سلفنا ممن كثرت شيوخه

---

[١٤٢] أخرجه البخاري (٢٦٥١) (٢٦٢٥) ك الشهادات ، باب لا يشهد على شهادة جور بلفظ " خيركم قرني " ، والرواية الثانية بلفظ " خير الناس " ، ومسلم (٢٥٣٣) ك فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

[١٤٣] أخرجه إبراهيم الحربي عن أبي ثعلبة ، وقد ذكره الشاطبي في الاعتصام ولم يذكر منزلته من الصحة ، وبنحوه أخرجه الدارمي في سننه (٢١٠١) ك الأشربة ، باب ما قيل في السكر .

قال الحافظ العراقي في شرح الألفية : وقد وصف بالإكثار من الشيوخ : سفيان الثوري ، وأبو داود الطيالسي ، ويونس بن محمد المؤدب ، ومحمد بن يونس الكديمي ، وأبو عبد الله بن منده ، والقاسم بن داود البغدادي روينا عنه قال : كتبت عن ستة آلاف شيخ .[١٤٤]

قال الحافظ الذهبي في ترجمة الحافظ الجوال صاحب التصانيف أبي عبد الله بن منده : وعدة شيوخه الذين سمع منهم وأخذ عنهم : ألف وسبع مئة شيخ .[١٤٥]

وقال أيضا : "ولم أعلم أحدا أوسع رحلة من ابن منده ، ولا أكثر حديثا منه مع الحفظ والثقة ، فبلغنا أن عدد شيوخه " ألف وسبعمائة شيخ ".

يقول ابن حبان : لعلنا كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ .

قال الذهبي : هكذا فلتكن الهمم .

وقال في الحاكم النيسابوري : " سمع من أكثر من ألفي شيخ فإنه سمع بنيسابور وحدها من ألف نفس .

قال ابن النجار عن الإمام السمعاني : سمعت من يذكر أن عدد شيوخه سبعة آلاف شيخ ، وهذا شيء لم يبلغه أحد .

وكثيرا ما تجد هذه العبارة في تراجم سلفنا العظام ، فيقال : " وسمع ما لا يوصف كثرة " .[١٤٦]

---

[١٤٤] شرح ألفية العراقي (٢/٢٣٣) ، وانظر صفحات من صبر العلماء ص (٦٤) لأبي غده.

[١٤٥] تذكرة الحفاظ (٣/١٠٣٢) .

أما الإمام ابن النجار (ت ٦٤٣ هـ) نفسه ، فكانت رحلته سبعا وعشرين سنة ، واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ .[١٤٧]

وهذا الإمام الحافظ الكبير فخر الأئمة ابن عساكر بلغ عدد شيوخه ألف وثلاث مئة شيخ .[١٤٨]

أخي في الله ...

وبعد أن علمت حال من تأخذ عنه العلم ، وأهمية الاستكثار من الشيوخ والرحلة إليهم ، أجد أنه لابد من مواجهة واقعية لحال أمتنا الآن بعد موفور الأسف على فقد جهابذة العلماء من أهل عصرنا، فالرجال يموتون والمنهج لا يموت أبدا ، ولكن ما السبيل؟! أين العلماء الربانيون ؟! ممن تأخذ العلم الآن ؟!

نعم إنه مرض عضال دب في جسد الأمة في الآونة الأخيرة ، ولكن لابد من سبيل شرعي يسلكه الناس ، أقول : علينا أن نضع ثقتنا في النابغين من طلبة العلم ، لابد أن تسلم لهم الراية بتؤدة وحكمة ليصلح أن يثبتوا في هذا المنزلق الصعب ، نعم لابد أن تفرز الأمة من يسد الثغرات ، والأمثلة كثيرة والحمد لله ، ابدأ مع من تقدم عن في سبيل الطلب ولو بخطوة ، خذ عنه ، نافسه ، وإذا وجدت من تهفو إليه نفسك ممن وصفت لك حاله من أهل العلم فتشبث به ، ولكن احذر

---

[١٤٦] انظر على سبيل المثال ترجمة الحافظ أبي طاهر السلفي (ت ٥٧٦ هـ) في تذكرة الحفاظ (١٢٩٨/٤-١٣٠٤) وطبقات الشافعية الكبرى (٣٢/٦-٤١) .

[١٤٧] تذكرة الحفاظ (١٤٢٨/٢) .

[١٤٨] المرجه نفسه (١٤٢٨/٤) .

القراءة دون أخذ الوسائل ، فلكل كتاب مفتاح ، لا يعطيك إياه إلا من خاض في هذا الدرب قبلك ، فإن شئت بديلا متاحا فاستمع للسلاسل العلمية المباركة التي خلفها العلماء الكبار فمثلا :

١) **في العقيدة** : اقتن مجموعة شرح العقيدة الوسطية للشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ ، وامسك بالكتاب ، واحضر حضور طالب في الجلسة .

٢) **في الفقه** : اقتن شرح زاد المستقنع للشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ ، وقد خرج في مجموعة مجلدات تحت اسم " **الشرح الممتع على زاد المستقنع** " .

٣) **في اللغة** : اقتن شرح الأجرومية للشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ .

٤) **في الأصول** : استمع لمجموعة " **الأصول من علم الأصول** " للشيخ ـ رحمه الله ـ .

٥) **في الحديث** : للشيخ عطية سالم ـ رحمه الله ـ شرح على الأربعين النووية اقتنه فإنه نافع .

وغيرها الكثير من السلاسل العلمية في شتى فروع العلم ، ابحث ونقب ، لا تفتر ،

فإن قلت : إن تكاليف هذه الأشرطة تكون باهظة فلا عليك اشترك أنت مع إخوانك في اقتناء هذه السلاسل وضعوها في المسجد تحت رعاية أحدكم ، وتبادلوها ، وليضع كل منكم برنامجا زمنيا للانتهاء

من استماع هذه المحاضرات ، على أن يتولى متابعتكم في ذلك من تستوثقون به من طلبة العلم النابغين .

وقد توفرت كثير من هذه السلاسل بفضل الله على أسطوانات الليزر بأسعار زهيدة فحاول أن تدبر مبلغا ، واشتر حاسوبا ، واقتن هذه السلاسل المباركة .

لا تتوقف أبدا عن الطلب ، وإن كثرت العوائق ، ولكن حذار من سلوك الدرب دون شيخ ، استمع لهذه الأشرطة ، واستأنس بمن يعلو عليك في الطلب ، وابذل وسعك في البحث عن العلماء الربانيين ، ولن تعدم وجودهم بإذن الله تعالى .



المنطلق الثامن

الأدب :

قال عمر :

تأدبوا ثمّ تعلموا

المنطلق الثامن

الأدب

أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ :

اعلم ــ أعزك الله ــ أن تعلم الآداب وحسن السمت مطلب شرعي قل في الناس الآن من يلتفت إليه ، بل البلايا العظام لم تتوال علينا إلا يوم هجر الناس السمت الحسن ، وأقبلوا على العلم ولم يزينوه بحليته الواجبة ، فظهرت الأقوال الشاذة ، وكثرت الصراعات والخلافات ، فلم نجن للعلم ثمرة ، وندر في الناس أهل العلم والفضل .

وقال ابن المبارك ــ رحمه الله ــ : **طلبت العلم فأصبت منه شيئا ، وطلبت الأدب فإذا أهله قد بادوا** .

وهذا في زمانه ــ رحمه الله ــ زمان " خير القرون " ، فكيف به إذا رأى زماننا هذا ؟

ولما تغافل الناس عن الاهتمام بالآداب الشرعية ظهر الالتزام الهش ، وصار الإقبال على المفضول ، وترك الفاضل ، وظهرت الانحرافات الفكرية والسلوكية والأخلاقية ؛ لأن تلك الآداب ــ في حقيقة الأمر ــ حصن الالتزام والإيمان الأول فإذا تركت ترك السنن والفرائض ونقضت عرى الإيمان الواحدة تلو الأخرى .

قال الحجاوي : **مثل الإيمان كمثل بلدة لها خمس حصون : الأول من ذهب ، والثاني من فضة ، والثالث من حديد ، والرابع من آجر ، والخامس من لبن .**

فما زال أهل الحصن متعاهدين حصن اللبن لا يطمع العدو في الثاني، فإذا أهملوا ذلك طمعوا في الحصن الثاني ثم الثالث حتى تخرب الحصون كلها .

فكذلك الإيمان في خمس حصون : اليقين ، ثم الإخلاص ، ثم أداء الفرائض ، ثم السنن ، ثم حفظ الآداب ، فما دام يحفظ الآداب ويتعاهدها فالشيطان لا يطمع فيه ، وإذا ترك الآداب طمع الشيطان في السنن ، ثم في الفرائض ، ثم في الإخلاص ، ثم في اليقين .[١٤٩]

فالأدب دليل على الالتزام الحقيقي ، ولذا جعل جزءا من أجزاء النبوة.

عن ابن عباس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ: " **إن الهدي الصالح والسمت والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة** "[١٥٠]

وكان الأدب هو المقياس الذي يقاس به الناس عند سلفنا الصالح ، فإذا لم يوافق هدي الرجل علمه تركوه ونبذوه ، فليس العلم عن كثرة المعارف وشحن الذهن بالفنون واللطائف ، وإنما العلم ما توصل به لخشية الله تعالى .

قال إبراهيم النخعي ــ رحمه الله ــ : **كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه نظروا إلى سمته وصلاته وإلى حاله ، ثم يأخذون عنه .**

---

[١٤٩] غذاء الألباب للسفاريني (٣٧/١) ط مؤسسة قرطبة .

[١٥٠] أخرجه أبو داود (٤٧٧٦) ك الأدب، باب الوقار وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٩٦) .

قال الإمام النووي : قالوا : **ولا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته واشتهرت صيانته وسيادته .**[151]

قال عبد الله بن المبارك : **لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب .**[152]

ولذلك كانت وصية سلفنا الصالح بتعاهد الأدب أكثر مما يتعاهد به العلم .

قال أبو عبد الله البلخي : **أدب العلم أكثر من العلم .**

والأدب شرط لحصول العلم ، يلزم من وجوده الوجود ، ويلزم من عدمه العدم ، فلا علم لمن لا أدب له .

قيل : **العون لمن لا عون له الأدب .**

وقال الأحنف بن قيس : **الأدب نور العقل كما أن النار نور البصر .**

ومن ثم فإنك لا تتعجب أن يفرد أهل العلم مصنفات مستقلة في بيان الآداب الشرعية ، " مثل : الآداب الحميدة والأخلاق النفيسة لابن جرير الطبري (ت ٣١١هـ) ، "جامع بيان العلم وفضله " لابن عبد البر(ت ٤٦٣هـ) ، و" الآداب الشرعية والمصالح المرعية " لابن مفلح الحنبلي (ت ٧٦٣هـ) وغيرها من الكتب النافعة الماتعة .

---

[151] المجموع (٣٦/١) ط دار الفكر .

[152] ذكره الحاكم في تاريخه .

آداب طالب العلم

*** * فيا أيها المتفقه :***

تأدب قبل أن تتعلم ، فإنك لن تنال من العلم طرفا إذا لـم تنـل مـن الأدب أطرافه .

واعلم ــ أعزك الله ــ أن تهذيب النفس ، وإصلاح خللها ليس بـالأمر اليسير إلا من وفقه الله تعالى ، فاصلح ما بينك وبين الله يستقم حالك، وهذه بعض الآداب عليك أن تسعى لتتحلى بها فهي زادك الحقيقي في طريق الطلب .

أولا : طهارة القلب من الأدناس ؛ ليصلح لقبول العلم واستثماره

ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : " **إن في الجسد مضغـة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كلـه ، ألا وهـي القلب** "

قالوا : **تطييب القلب للعلم كتطييب الأرض للزراعة .**

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : وعد رسـول الله ﷺ جـبريل أن يأتيـه ، فراث عليه حتى اشتد على رسول الله ﷺ فخرج فلقيـه جـبريل ، فشكا إليه فقال : " **إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة**"

فإذا كانت الملائكة لا يدخلون بيتا فيه كلب فكيف ينزلون قلبا مليئـا بالأنجاس والخبائث ومذموم الصفات مثل : الغضب والشهوة والحقد

والحسد والكبر والعجب ونحوها ، وهذه الصفات كالكلاب النابحـــات في الباطن فكيف يمكن أن تتفق هذه مع ملائكة الرحمة ؟[١٥٣]

قال ابن جماعة : " القلب المظلـم المشـحون بـالذنوب لا يسـتطيع استقبال الملائكة ، ولا يبقى فيه مكان للعلم الذي هو نور يقذفه الله في قلوب من أراد .

قال الإمام الشافعي ــ رحمه الله ــ :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشـدني إلى ترك المعاصي

وأخبرنـي بأن الـعـلم نـور ونـور الله لا يـهـدى لعـاص

فعلى طالب العلم أن يطهر ظاهره بمجانبة البدعـة والتحلـي بسـنن رسول الله ﷺ في أحواله كلها ، والمحافظة على الوضـوء ونظافـة الجسم من غير تكلف وعلى قدر المستطاع .

وعليه أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسـوء عقيـدة وخلق ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيـه وحقائق غوامضه ، فإنه العلم .

كما قال بعضهم : صلاة السر وعبادة القلب وقربة الباطن وكمـا لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة غلا بطهارة الظـاهر من الحدث والخبث فكذلك لا يصح العلم الذي هو عبادة القلب غـلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساويء الأخلاق ورديئها " [١٥٤]

---

[١٥٣] فضل العلم وآداب طلبته وطرق تحصيله وجمعه للشيخ/محمد سعيد رسلان ص ١١٩ ط مؤسسة الزهـراء

[١٥٤] تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٧

قال سهل : حرام على قلب ان يدخله النور زفيه شيء مما يكــره الله عز وجل .

ثانيا : الرضا باليسير من القوت ، والصبر على ضيق العيش .

قال الإمام أبو حنيفة ــ رحمه الله تعالى ــ : **يستعان على الفقه بجمع الهم ، ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا يزد .**

قال الإمام مالك ــ رحمه الله تعالى ــ : **لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضربه الفقر ، ويؤثره على كل شيء .**

قال الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ : **لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح .**

وقال أيضا : **لا يدرك العلم إلا بالصبر على الذل .**

وقال ــ رحمه الله ــ : **لا يصلح طلب العلم لمفلس .**

فقيل : **ولا الغني المكفي !!** فقال : **ولا الغني المكفي .**

قال إبراهيم الآجري : **من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم .**

قال ابن جماعة : من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال أكل اليسير من الحلال ن ذلك أن كثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب وكثرته جالبة للنوم والبلادة وقصور الذهن وفتور

الحواس وكسل الجسم ، هذا مع ما فيـــه مـــن الكراهيـــة الشـــرعية والتعرض لخطر الأسقام البدنية "

ثم قال : " ومن رام الفلاح في العلم وتحصيل البغية منه مـــع كـــثرة الأكل والشرب والنوم فقد رام مستحيلا في العادة "[١٥٥]

<u>**ثالثا : التواضع للعلم والعلماء .**</u>

قالوا : **العلم حرب للمتعالي ، كالسيل حرب للمكان العالي .**

فينبغي لطالب العلم أن ينقاد لمعلمه ، ويشاوره في أموره ، كما ينقـــاد المريض لطبيب حاذق ناصح .

قال الشافعي ــ رحمه الله ــ :

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وينبغي أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانـــه على أكثر طبقته ، فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ما سمعه منـــــه في ذهنه .

وقد كان بعض السلف إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال : اللـــهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني .

قال الشافعي : **كنت أصفح الورقة بين يدي مـــالك ــ رحمـــه الله ــ صفحا رفيقا هيبة له لئلا يسمع وقعها .**

---

[١٥٥] المرجع السابق ص ٧٣-٧٤

وقال أحمد بن حنبل لخلف الأحمر : لا أقعد إلا بين يديك أمرنـــا أن نتواضع لمن نتعلم منه .

وقال الربيع : **والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلـــي هيبة له .**

وفي وصية جامعة للإمام علي رضي الله عنه قال : **من حق العـالم عليـك أن تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية ، وأن تجلس أمامـــه ، ولا تشيرن عنده بيدك ، ولا تعمدن بعينك غيره ، ولا تقولن : قال فـلان خلاف قوله ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تسار فـــي مجلســه ، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تشبع من طول صحبتــه ، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليها منها شيء .**

رابعا : أداء حقوق معلمك عليك .

على طالب العلم أن يتحرى رضا المعلم وإن خالف رأي نفسه ، فإنما هو يرضي ربه برضا معلمه .

وعليه ألا يفشي سر معلمه ، وألا يغتاب عنده أحدا ، وأن يرد غيبتــه إذا سمعها ، فإن عجز فارق ذلك المجلس .

وآه ممن ينقل السوء ويسعى بالنميمة بين أهل العلم ، فيقطع رحمـــهم الموصولة ، وقد ابتلينا في هذا الزمان بأمثال هـــؤلاء ، فكـم مـن خلافات شبت بسبب هؤلاء النمامين ، وليته صمـت فنجـا ، وليتـه أمسك لسانه ، ولكن ذهب الأدب .

ومن الأدب كذلك ألا يدخل عليه بغير إذن ، وإذا دخلوا عليه جماعة قدموا أفضلهم وأسنهم .

وينبغي أن لا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه ن ولا يناديه من بعد، ولا يسميه في غيبة باسمه إلا مقرونا بما يشعر بتعظيمه كأن يقول : قال الشيخ أو الأستاذ .

وعليه أن يصبر ، فلن ينال العلم إلا بذل النفس ، فيصبر على شدة شيخه به ، فإنما يريد به الخير من حيث لا يدري .

قال ابن جريج ــ رحمه الله ــ : لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء ــ رحمه الله ــ إلا برفقي به .

خامسا : التحلي بآداب مجلس العلم .

ينبغي لطالب العلم أن يدخل على معلمه وهو كامل الهيئة ، فارغ القلب من الشواغل ، متطهرا متنظفا بسواك وقص شارب وظفر ، وإزالة كريه رائحة .

ولا يتخطى رقاب الناس ، بل يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أن يصرح له الشيخ بالتقدم والتخطي ، أو يعلم من حالهم إيثار ذلك .

ويسلم على الحاضرين كلهم بصوت يسمعهم إسماعا محققا ، ويخص الشيخ بزيادة إكرام ، وكذلك يسلم إذا انصرف .

ولا يقيم أحدا من مجلسه ، فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه إلا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين ، بأن يقرب من الشيخ ، ويذاكره مذاكرة ينتفع بها الحاضرون بها .

ولا يجلس وسط الحلقة إلا لضرورة ، ولا بين صاحبين إلا برضاهما، وإذا فسح له قعد وضم نفسه .

وينبغي أن يبكر للمجلس ، ويحرص على القرب من الشيخ ليفهم كلامه فهما كاملا بلا مشقة ، وهذا بشرط أن لا يرتفع في المجلس على أفضل منه .

ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس فإن تأدبه معهم تأدب مع الشيخ واحترام لمجلسه .

وإذا قعد قعد قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين .

ولا يرفع صوته رفعا بليغا من غير حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام بلا حاجة ن ولا يعبث بيده ولا غيرها ، ولا يلتفت بلا حاجة ، بل يقبل على الشيخ مصغيا إليه .

وإذا سمع الشيخ يقول مسألة أو يحكي حكاية وهو يحفظها فعليه أن يصغي لها إصغاء من لم يحفظها .

وإذا جاء مجلس الشيخ فلم يجده انتظره ، ولا يفوت درسه إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه فلا يشق عليه بطلب الإقراء في غيره .

سادسا : أدب سؤال العالم .

ينبغي لطالب العلم أن يغتنم سؤال معلمه عند طيب نفسه وفراغه .

وعليه أن يتلطف في سؤاله ، ويحسن خطابه .

ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه ، بل يستوضحه أكمل استيضاح ، فمن رق وجهه رق علمه ، ومن رق وجهه عند السؤال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال .

وإذا قال له الشيخ : أفهمت ؟! فلا يقل : نعم حتى يتضح له المقصود إيضاحا جليا لئلا يكذب ويفوته الفهم .

وعليه ألا يستحي من قول : لم أفهم ؛ لأن استثباته واستيثاقه يحصل له مصالح عاجلة وآجلة ، فمن العاجلة حفظه المسألة وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه .

ومنها اعتقاد الشيخ اعتناءه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه .

ومن الآجلة : ثبوت الصواب في قلبه دائما واعتياده هذه الطريقة المرضية والأخلاق الرضية .

قال الخليل بن أحمد ــ رحمه الله ــ : **منزلة الجهل بين الحياء والأنفة .**

سابعا : عدم التسويف واغتنام الأوقات .

فلا يسوف في اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة ، فللتأخير آفات ، وكفى أنه يضيع عليه من الفوائد ما كان يمكنه الإلمام بها لولا تقصيره وكسله .

قال الربيع : **لم أر الشافعي آكلا بنهار ولا نائما بليل لاهتمامه بالتصنيف .**

فينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة .

قال عمر رضي الله عنه : **تفقهوا قبل أن تسودوا .**

قال الشافعي : **تفقه قبل أن ترأس ، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.**



المنطلق التاسع

تكوين الملكة الفقهية

المنطلق التاسع

تكوين الملكة الفقهية

أيها المتفقه : .حبيبي في الله .

دائما ما أردد أن جهودنا الدعوية التي بذل فيها الغالي والنفيس للأسف الشديد لم تنتج لنا ما كنا نحلم به في جيل الصحوة ، فلم نـــر فقيها بمعنى الكلمة ، ولم نجد المجتهد الذي يتعامل مع الواقع المتغــير بمنهجية سلفية محضة ، وليس هذا على سبيل التجوز أو الادعـــاء ، وإلا فقد صدق من قال : عالمنا طالب علم عند السلف ، وطالب العلم عندنا عامي عندهم .

إننا بحاجة ماسة لوجود هذا الفقيه المنشود ، الذي تربى علـــى الأخذ بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، الذي يستطيع التعـــامل مـــع واقعنا المعاصر ، وأنت تدري حجم الأزمات الفقهية الطاحنـــة التـــي يمر بها المسلمون في هذا الزمان ، فكلما خرج علينا أهـــل العلـــوم التجريبية بنظرية أو اكتشاف ما ، وبدا أنه يتعارض مـــع نصـــوص الوحي الرباني من جانب تجد صراعا مريرا بين الطائفتين ، ولـك أن تتذكر مثلا المشكلات الطبية التي ما زالت تحظى بجدل فقهي كبـــير في هذا العصر كقضية " نقل الأعضاء "،وقضية " الختان للإنـــاث " ، وقضية " الاستنساخ " ، ولك أن تنظر إلى الصراع الذي يدور كـــل عام بين الفلكيين وعلماء الدين حول رؤية هلال رمضان ، أضف إلى هذا القضايا الاقتصادية كالتعامل مع البنوك ، وشركات التأمين بكـــل

صوره ، والتعامل مع بورصة الأوراق النقدية ، وغير هذا من القضايا التي تلحظ دائما فيها افتقاد الأمة للفقيه الذي يجمع بين الحسنيين ، أعني قراءة النص ، وقراءة الواقع بفهم سلفي صحيح .

وقد حثنا الله تبارك وتعالى للتفقه في دينه ، وجعله من فروض الكفايات ، فالأمة كلها تأثم إذا لم يوجد فيها هذا النمط المنشود من الفقهاء .

قال تعالى : "**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** " [التوبة /١٢٢]

وقال ﷺ : "**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين** "[١٥٦]

فمحض منة من الله تبارك وتعالى أن يرزق العبد تلك الملكة الفقهية ، ولكن تعالوا لنتساءل : ما السبيل إذا ؟ وما هو المطلوب من هذا الفقيه المنشود وسط هذه التحديات ؟

فبادئ ذي بدء ، **ما هي حقيقة الفقه ؟**

أيها المتفقه ــ حبيبي في الله ــ :

الفقه الحقيقي هو : امتلاك القدرة على ما يسمى في المصطلح الفقهي بـ " **تحقيق المناط** " ، أو القدرة على تجريد النص من قيد الزمان والمكان ، والاجتهاد في تنزيله على واقع الناس ، ومعالجته لمشكلاتهم .

---

[١٥٦] متفق عليه ، أخرجه البخاري (٧١) ك العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ومسلم (١٠٣٧) ك الزكاة ، باب النهي عن المسالة .

فليس الفقه في حفظ كتاب أو سرعة استذكار مسألة مع العجز ــ مثلا ــ عن إيجاد وتوليد مثال غير مثال الأقدمين ، والذي ما زلت تراه في كل كتاب تقرأه ، وكأن الفقه صار محصورا في بعض المسائل القديمة .

وإنما نعني بالفقه الإدراك العميق لمقصود الشرع ، والإلمام بالواقع عن طريق معرفة الأسباب ، ومعرفة السنن الربانية والكونية، واستيعاب حقائق الماضي ، في ظل مواجهة واقعية ، فليس بفقيه من عاش بمعزل عن الناس ، ولم يبصر ما يعانونه ، ولم يدرك الملابسات والتفاصيل التي تحيط بكل منهم .

وقد قال الله تعالى : " **ما فرطنا في الكتاب من شيء** " [الأنعام/٣٨] فالدين يشمل كل جوانب الحياة ، ولعل هذا من أخطر ما يعاني منه المسلمون الآن ، أعني إدراك هذه الحقيقة والتعامل من منطلقها في دراسة كل مشكلاتهم ، لأنه بسبب تيارات " **الغزو الفكري** " تعرضت لزعزعة هذا الأصل الأصيل في تعاملها مع الواقع ، فلم يعد الدين هو صاحب الكلمة الأولى ، ولم يعد له الفصل في جميع المسائل ، ومع تقاعس الفقهاء عن اللحاق بمستجدات عصرهم ، ظهرت هذه الإشكالية ، وصار في الناس من يقسم الدين إلى قشور ولباب ، فافتقدنا أول الأصول وقاعدة الارتكاز أعني " **شمولية الدين** ".

إن غياب الرؤية الإسلامية أو الفقه الشامل عن أي موقع وعدم امتداده له يعني وجود الفراغ الذي يسمح بوجود " الآخـــر " ليصنـــع للناس رؤيتهم ، ومن هنا ينبغي أن نعود لتوسيع معنى الفقـــه ، فـــلا يقف عند حدود " التشريعات " بل نحن في أمس الحاجة الآن إلى علم أصول فقه : " تربوي " و" اجتماعي " و" سياسي " و" اقتصادي " و" معرفي " بشكل عام ؛ ليغطي جميع شعب المعرفة وجوانب الحياة، ولا يقتصر على الجانب التشريعي فقط .

ولعل من قبيل نفس الملاحظة أن الأصوليين عندما تكلموا فـــي شروط المجتهد ، ومنها إلمامه بكتاب الله عز وجل ، تباينت وجـــهات نظرهم في هذا الجانب فحصر بعضهم هذا الإدراك في نطاق آيـــات الأحكام ، وهذا ما يمثل " الوقوف عند الجانب التشـــريعي فحســب " بينما كانت النظرة الأوفق للصواب تدعو لضرورة إلمامه التام بجميع آيات الذكر الحكيم لماذا ؟

لأن آيات القرآن كلها آيات أحكام فمنـــها : أحكـــام تربويـــة وأخلاقية ، ومنها أحكام اجتماعية ، ومنها أحكام سياســـية ، وهكـــذا فحصر الفقه في جانب دون آخر يبعدنا عمـــا ننشـــده فـــي فقيـــهنا المعاصر، فإن هذا كان موجود في سلفنا ، وآراؤهم تشهد بهذا ، لكـــن يوم غاب عنا هذا الفهم الشمولي اختزلت نصوص الشرع لتنأى عـــن الواقع ، وهذا لم ليحدث في أمة شهدت حضارة ضخمة امتدت عـــبر مئات السنين واتسعت لبيئات مختلفة وأجناس متباينة .

انظر مثلا : لقوله تعالى : " **فاعتبروا يا أولي الأبصار** " [الحشر/٢] بين الفهم التشريعي والفهم الشمولي ، فإن الأصوليين استدلوا بهذه الآية على " القياس " باعتباره أحد أدلة الفقه ، والآية واضحة في مخاطبة أهل الإيمان بالاسترشاد بسنن الله في الكون ، وأخذ العبرة والعظة من حال الأمم السابقة ، إنها أصل فيما يمكن تسميته بالفقه السياسي أو الاجتماعي .

كذا قوله تعالى : " **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** " [التوبة /١٢٢] فالفقه هنا لا يقتصر على " **الفقه التشريعي** " وإنما أعم من ذلك ، ولعل من أدلة ذلك التعبير بـ " **النفرة** " التي تتناسب مع دخول الميدان ودراسة الواقع .

وقد كان من دعائه ﷺ المأثور لعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – " **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل** " وأنت تلحظ أن المقصود ليس هو الفقه التشريعي الذي يشمل أبواب العبادات والمعاملات والجنايات ونحوها ، وإنما الفقه الذي يشمل فقه السنن الربانية والفهم عن الله تبارك وتعالى ، فقه الحياة بشتى صورها ، وليس المقصود بـ " **التأويل** " التفسير والبيان كما اعتدنا فهمه ، بل التأويل يعني البصر بالعواقب والنتائج والمآلات ، إنه إدراك للسنن الفاعلة في الحياة وتحولاتها الاجتماعية وقانونها الرباني .

فهذا ما نعنيه بالفقه أعني " **الفقه الحضاري** " ، الفقـــه الـــذي يغطي جوانب الحياة ، الفقه الذي يتماشـــى مـــع شـــمولية الديـــن ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ، " فقه السنة " بمعناها العام الذي يعنـــي الطريقة المطردة والقانون الناظم ، أي فقه تقويم الحاضر بقيم الديـــن في ضوء كل الظروف المحيطة .

وفي ضوء هذا المعنى نحتاج إلى بيان المقصود بـــ " **الملكة الفقهية** " كمقدمة لمعرفة طرق تكوينها واكتسابها.

<u>الملكة الفقهية</u>

الملكة في معناها اللغوي تدور حـــول الدلالـــة علـــى القـــوة والرسوخ ، ومعناها في اصطلاح أهل العلم ليس بمنأى عـــن ذلـــك فقالوا : هي " **صفة راسخة في النفس** " ، هذه الصفة تعين الإنسان على سرعة البديهة في فهم الموضوع .

وهذه الصفة هبة من عند الله ومن هذا قول الإمام مـــالك : **ليس الفقه بكثرة المسائل ، ولكن الفقه نور يؤتيه الله من يشاء مـــن خلقه .**

وهذه الصفة تنمو بالاكتساب عن طريـــق الإحاطـــة بمبـــادئ العلوم والإلمام بقواعده ، وهي تبدأ ضعيفـــة ثـــم تقـــوى بالرعايـــة والتدرج، ولذلك فإن حصول هذه الملكة يحتاج إلى نوع من الدربـــة والتدرج في التلقين والتعلم .

وعلى هذا فإنَّ صاحب الملكة الفقهية من يكون الفقه له سجية، وعنده قوة يقتدر بها على استنتاج الأحكام من مآخذها .

وهذه الملكة لها أنواع :

فمنها : **فقه النفس** وهو غريزة لا تتعلق بالاكتساب ، وتورث صاحبها شدة الفهم لمقاصد الكلام .

ومنها : **القدرة على استحضار الحكم الشرعي العملي** في مظنته الفقهية .

ومنها : **القدرة على استنباط هذا الحكم الشرعي ،** عن طريق التضلع بالعلوم الشرعية وعلوم اللغة مما هو ضروري للاجتهاد .

ومنها : **القدرة على تخريج الفروع على الأصول والترجيح بين الآراء ،.**

وقد يعبر عن هذه الملكة بـ " البصيرة " أو " الحكمة " أو " الاجتهاد " وبينهم من التداخل والتباين ما بينهم ، والفقيه المطلوب – والذي نرجوه – هو الذي تجتمع له كل هذه الأنواع من الملكات ؛ لأنه بحاجة إلى مجموعها ، ففقه النفس يعينه على القيام بأمر الله تعالى في نفسه وأهله ، ومن حولهم ، وفي فتاويه للناس ، فإنه يعلم بحاله حالهم ، فتكون فتاويه ونصائحه موفقة لا ملفقة .

وملكة القدرة على الاستنباط لأن نصوص الشرع تنحصر والنوازل لا تنحصر ، فأحكام الدين تؤخذ بالاستنباط من الأدلة ، وهذا هو الفقه

الحقيقي ، فليست القضية في حفظ النصوص واستحضارها ، ولكـــن في تنزيل هذه الأحكام بفقه النفس وملكة الاســتنباط فــي اســتخراج الحكم الذي يرضي الله ورسوله ، فقد قالوا : أنَّ الفقيه هو الذي أحاط علمًا بالشريعة ، فيستخرج الحكم من مجموعها .

وأيضًا ملكة الترجيح بين الآراء ملكة خطــيرة ، فــهو لا يتعصــب لمذهب ولا لشخص ولا يحكمه الهوى ، فلا يتابع أحدًا في كل أقوالــه إلا رسول الله ﷺ، فلذلك هو مجتهد حقيقة ، وهذا المجتهد له ملكـــة حقيقية ، تبين له الصحيح من المزيف من الأقوال كالصيرفي الماهر، فهو حين ينظر في أقوال الناس يعرف مــآخذ العلمــاء ويتبيــن لــه مشاربهم ، فيتوجه الأمر لديه بالترجيح الصحيح بينهم ، وقد مر بنـــا مراراً قول رسول ﷺ" **يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين** "[١٥٧]

<u>كيف تتكون هذه الملكة ؟</u>

لتكوين الملكة الفقهية شروط هي :

<u>أولا: الاستعداد العقلي والقلبي والشخصي للمتفقه .</u>

فأما استعداده العقلي فينبغي أن يكون المتفقه ذكيا ، قوي المـــدارك ، يعرف مقتضى الكلام ومعناه ، عنده ملكة جيدة في الحفظ والاستذكار ، ولذلك كانوا يبدأون بحفظ القرآن لصقل هذه الملكة عند طالب العلم،

[١٥٧] أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/٧) ، قال في كنز العمال : قال الخطيب سئل أحمد بن حنبـل عن هذا الحديث وقيل له كأنه كلام موضوع قال لا هو صحيح سمعته من غير واحد .

وليعتاد ذلك منذ الصغر وتقدير مقوماته الإدراكية ، فضلا عن النور الذي يبعثه القرآن في صدره .

وأما استعداده القلبي والخلقي فأعني أن يكون المتفقه صافي النفس من أدران الدنيا وشوائبها ، مخلصا في طلب الحق والمعرفة ، عدلا يجتنب المعاصي ويلتزم بالطاعات ، متحليا بصفات المروءة

وقد كان سلفنا الصالح يختبرون المتعلم أولا ، فإن وجدوا فيه خلقا رديئا منعوه ؛ لئلا يكون آلة فساد ، وإن وجدوه مهذبا علموه ، ولا يطلقونه قبل الاستكمال خوفا على فساد دينه ودين غيره .

أما استعداده الشخصي فإن تكوين الملكة الفقهية يحتاج إلى كبير همة وجد ومثابرة وصبر على ذل التعلم ، فالمتفقه لا يترك لحظة دون تعلم واستكثار من ميراث النبوة ، وتعاهده بالحفظ ، والمذاكرة المستمرة

قالوا : العلم ما ثبت في الخواطر لا ما حوته الدفاتر .

ثانيا : المعلم الحاذق القدوة

لا شك أن وجود المعلم المربي من أركان هذا البناء ، فنحن في حاجة إلى شيخ متقن لعلمه متمكن فيه ملم بآفات النفوس ويحسن تهذيبها ، وفي ظل افتقاد الأمة لهذا الرجل القدوة تظل الإشكالية مطروحة ، ومن هنا علينا إيجاد هذه النماذج في الأمة ، والبحث عنها ، والاستكثار منها ، وتأهيل القائمين على العملية التعليمية وفق منهج علمي صحيح ليكثر سواد هؤلاء المعلمين .

فمن شرطه :

١) أن يكون معروفا بالديانة والستر والصيانة ، وإلا فـــإن أخطـــر وبال على طالب العلم أن يتلقى تعليمــــه مـــن أهـــل المعـــاصي والفسوق ، فيشب الفتى متلطخا بما رباه عليه أستاذه بحاله قبـــل مقاله .

قال محمد بن سيرين : إنما هذا العلم دين فـــانظروا عمـــن تـــأخذون دينكم .

٢) أن يكون بصيرا بطريقة التلقين والتعليم بحسب مرحلة الطـــالب وقدرته ، ماهرا في عرض المادة العلمية ، لديـــه القـــدرة علـــى الإيضاح بوسائل شتى ، عاملا على صقل مواهب تلاميذه .

ثالثا : اتباع منهج علمي أصيل

من المقومات الأساسية للملكة الفقهية وجود منهج دراسي أصيل يتلقاه المتفقه في مراحل دراسته ، ويتمثل في العلوم الأساسية التي ينبغي له أن يدرسها وهي :

١) معرفة القرآن وعلومه .

فالقرآن أقوى شيء في تكوين الملكة الفقهيـــة ، وبنـــاء الأخـــلاق والنفوس ، قال الشاطبي ــ رحمه الله ــ : " إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة ، وعمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرســـالة ، ونور الأبصار والبصائر ، وأنه لا طريق إلى الله سواه ، ولا نجـــاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه ، وهذا كله لا يحتاج إلـــى تقريـــر

واستدلال عليه لأنه معلوم من دين الأمة ، وإذا كان كذلك لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة ، وطمع في إدراك مقاصدها ، واللحاق بأهلها : أن يتخذه سميره وأنيسه ، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرا وعملا ، لا اقتصارا على أحدهما ، فيوشك أن يفوز بالبغية ، وأن يظفر بالطلبة ، ويجد نفسه من السابقين وفي الرعيل الأول "[١٥٨]

فالقرآن الكريم لا يخلق بكثرة النظر ، وكلما نظر الإنسان فيه ازداد علما وفقها ، فعلى المتفقه أن يحفظ القرآن الكريم أولا وقبل أي شيء آخر ، ويتقن تلاوته ، فيلم بعلم التجويد ، ولا يتعجل ويرمي إلى دراسة الفقه وعلومه قبل أن يكون أتم حفظ القرآن الكريم .

ثم ينهل من معين علومه قسطا فيعرف الناسخ والمنسوخ ، وأسباب النزول ، والقراءات القرآنية .

٢) <u>معرفة السنة وعلومها .</u>

فيبدأ بحفظ بعض المتون المختصرة كالأربعين النووية ونحوها ليتسع محصوله من السنة شيئا فشيئا بعد ذلك .

ويلم بعلوم الحديث ، فيعرف " أسباب ورود الحديث " و" الناسخ والمنسوخ " و" الجرح والتعديل " يلم من ذلك بطرف .

وثم مسالة مهمة في هذا وجب التنبيه عليها ، وهي أن الصحوة لما قامت وبينت أهدافها في لزوم رجوع الأمة إلى المعين

---

[١٥٨] الموافقات (٣/٣٤٦)

الصافي من الكتاب والسنة ، واكب ذلك اهتمام عظيم بعلوم السنة بفضل مجدد العصر عليه رحمات الله الشيخ / محمد ناصر الدين الألباني ، وكثر الباحثون في هذا المجال بفضل الله تعالى ، ولكن مع ظهور الفهارس العلمية ناهيك عن التقنيات الحديثة الآن دخل في هذا المضمار من ليس أهلا له ، والشيخ ــ رحمه الله ــ شن عليهم حملات متتابعة تشهد بذلك مقدمات مصنفاته الأخيرة ، ولكن اختلط الحابل بالنابل ، وصار ديدن البعض لا يخرج عن فلك " مصطلح الحديث " و " تحقيق وتخريج الأحاديث " تحت الزعم بأنه نشر للسنة ، والواقع يكذب ذلك ، ومن ثم لابد من ترشيد طلاب العلم في هذا الجانب ، فلا يكون جل اهتمامه في علم واحد ، ويترك حفظ القرآن وتعلم أبواب الفقه والإلمام بالأصول وإتقان اللغة ، ولعل هذا من واجبات " الجيل الثاني " الذي لم تبد بعد معالمه منذ رحل العلامة الشيخ الألباني ــ رحمه الله ــ

وعلى طالب العلم أن يبدأ في التعرف على كتب السنة وطوق مصنفيها ، ليعرف كيفية استخراج الحديث من هذه الكتب ، وفي ظل وجود الحاسب الآلي وغيره من التقنيات الحديثة فإني لا أنصح بالتعامل مع هذه الوسائل إلا بعد أن يكتسب طالب العلم مهارة التخريج من الكتب ، وهذا ليس من قبيل التعسير ، بل هذا من محض التجربة ، نعم نحن لا نقلل من هذه التقنيات وأنها وسيلة بحثية جيدة ،

لكن لا يبدأ بها طالب العلم ، وإلا فإنها ستهدم ملكة البحث والتنقيب عنده ، والتي لها من المزايا ما لا يدركه إلا من جرب ذلك .

فاجمع بين الأمرين ، تدرب جيدا مع الكتب ، ثم استخدم هذه التقنيات بعد أن يرسخ قدمك ، فسوف تجد من المنفعة ما لا يعرفه إلا خبير بهذا الشان .

وينبغي أن تمتد صلتك بالمتون إلى الشروح ، والانتفاع بما فيها من علم غزير ، وعادة سوف تكون هذه المراجع بغيتك في فترة لاحقة ، ولكن في البداية استأنس بها ، ثم عندما تستكمل أدواتك فسوف يعظم قدر هذه الكتب عندك بعد ذلك .

٣) معرفة علوم اللغة .

ينبغي للمتفقه أن يلم بعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب ؛ ليتمكن من فهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية حق الفهم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن تعلم اللغة العربية من الدين ، وإنه فرض واجب لفهم مقاصد الكتاب والسنة ومراد الشارع من خطابه ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهمان غلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب "[١٥٩]

أما الشاطبي ـ رحمه الله ـ فيقول : " الشريعة عربية ، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم ؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز ، فإذا فرضنا مبتدئا في

[١٥٩] اقتضاء الصراط المستقيم ص (٢٠٧)

فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة ، أو متوسطا فهو متوسط في فهم الشريعة ، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة ، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة ، فمن لم يبلغ شأوهم فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة ولا كان قوله فيها مقبولا ، فلا بد من أن يبلغ في العربية مبلغ الأئمة فيها كالخليل وسيبويه والأخفش والجرمي والمازني ومن سواهم "[١٦٠]

فالشاطبي ــ رحمه الله ــ جعل مدار علوم الاجتهاد على أمرين :

١) الإلمام بعلوم اللغة ٢) البصر بمقاصد الشريعة .

ولكنه يرى أنه ينبغي أن يستفرغ المتفقه الوسع في تحصيلهما حتى يصل في اللغة ــ مثلا ــ كما يقول هو : إلى درجة الخليل وسيبويه والاخفش ونحو من فحول علماء اللغة .

وإن كان في هذا نوع تجوز إلا أنه يفيدنا هنا خطورة دور اللغة وصلتها الوثيقة بالعلوم الشرعية .

وعلى كل حال ينبغي لطالب العلم أن يبدأ بدراسة متن من متون النحو كالأجرومية ثم يثني بكتاب كـ " قطر الندى " أو " شذور الذهب " لابن هشام ، ثم يترقى إلى شروح ألفية ابن مالك كشرح ابن

---

[١٦٠] الموافقات (١١٥/٤) .

عقيل أو الأشموني وحاشية الصبان عليها ، إلى أن يصل لدراسة " مغني اللبيب " لابن هشام أيضا .

وفي الصرف يحفظ الشافية ، ويلم بشروحها .

وفي البيان يبدأ بالكتب اليسيرة كالبلاغة الواضحة ، وينتقل للمتون كتلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، ومن اخطر ما كتب في هذا الفن كتب عبد القاهر الجرجاني لا سيما " دلائل الإعجاز " و " أسرار البلاغة "

٤) دراسة الفروع الفقهية .

وهي دراسة الفقه بمعناه "التشريعي " بمعرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية في كتاب الله أو سنة رسول الله أو الإجماع أو بالقياس وغيرها من الأدلة الشرعية .

والمتفقه ينبغي أن يحفظ مختصرا في الفقه على مذهب من المذاهب ، يتلقاه على شيخ حاذق ، ثم بعد ذلك يبدأ في التوسع مرحليا ، وقد رتب أهل العلم الكتب التي يبدأ بها طالب العلم ثم بماذا يثني في مرحلة التوسط ثم ماذا يقرأ في مرحلة الاستقصاء والانتهاء وهكذا

فمثلا : في الفقه الحنبلي ألف ابن قدامة ـ رحمه الله ـ " **عمدة الأحكام** " للمبتدئ ثم " **المقنع** " لمن هو أعلى منه ثم " **الكافي** " ثم في النهاية " **المغني** " وهكذا .

وينبغي على طالب العلم ألا يتعدى مرحلة دون أن يصل إلى رسوخ القدم فيها ، ولا عليه أن يتعرض للفقه المقارن في البداية فإنه مدعاة

لتشويش ذهنه بالخلافيات فتدبر ذلك فكم زلت أقدام بسبب عدم سماع النصيحة في ذلك فإلى الله المشتكى .

٥) الإلمام بعلم أصول الفقه والقواعد الفقهية

وهذا أهم العلوم للفقيه ، وهو الآلة التي يتوصل بها للاجتهاد ، وهذه الدراسة تكون بعد أن يلم طالب العلم بمختصر من المختصرات الفقهية ، وبعد أن يلم بطرف من العلوم اللغوية إذ منهما يستمد .

" واعلم أن هذا الفن طويل عميق ، لا تحصل البضاعة منه إلا في مدة متطاولة " [١٦١] وقد أدخل المتأخرون فيه من الكلاميات والجدليات ما جعله يعسر على كثير من شداة هذا الفن ، ولكن ثمة جهود تبذل الآن لتنحية مثل هذه الكلاميات عن صلب العلم ، وهناك بعض الكتب الجيدة في هذا الباب .

والفائدة التي تعود على المتفقه من تعلمه الأصول أنه ينمي ملكته فتبدأ في حصر المتفرقات وضبطها ، وتربي عنده ملكة الاستنباط ، وتبصره بطريقة التعامل مع النصوص لاستخراج الحكم الفقهي .

٦) معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية .

ونعني بها المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية ، ومن المعلوم أن المتفقه لا يدرك ذلك إلا بعد أن يغوص في العلوم الشرعية حتى يبدأ

---

[١٦١] ترتيب العلوم للمرعشي ص (١٥٧) ط دار البشائر الإسلامية .

في فهم سنن الله الكونية والدينية ويستصحب ذلك فتعينه على الترجيح بين الأدلة المتعارضة والجمع بينهما، ورد المتشابه إلى المحكم ، وقراءة الواقع وتدبره وفق أصول صحيحة ، وكم من مسائل فقهية لا يمكنك أن تنتهي فيها إلى رأي جازم دونما استصحاب هذه المقاصد الشرعية.

ومن البدهي أن نقول : إن الإمام الشاطبي هو فارس هذا الميدان ، وقد سطر من بعده الطاهر بن عاشور وعلال الفاسي بعد الدراسات القيمة أيضا ، لكن ما ينبغي التنبيه إليه أن إحاطة المتفقه بهذه المقاصد على الوجه المرجو لا تكون إلى بعد رسوخ قدمه في العلوم الشرعية ــ كما تقدم بيانه ــ فانتبه.

٧) فهم الواقع المعاصر .

لابد للمتفقه أن يكون ملما بواقعه المعاصر ، مدركا للتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تحدث في زمانه ، ولا يجوز له بحال من الأحوال تجاهلها ، لأنه حينئذ لن يكون محيطا بفقه الواقعة فيصعب أن ينزل النص لهذا الواقع الذي يجهله ، وهنا تتخبط أقدام ، والله المستعان أن يظهر في الأمة من يعوضنا من ذهب من علمائنا الأفذاذ ، والذين استقامت عندهم الرؤيتان ، وأن ينبت من جيل " الصحوة " علماء في شتى المجالات ، حتى تتبين الأمور في ظل هذه الغيوم التي يفرزها " الغزو الثقافي " و" الحملات العلمانية " الداعية إلى فصل الدين عن الحياة، وتقديم العقل على النقل ،

ومواجهة أهل الدين بالتقدم التقني الغربي وأنه كان من نتاج العلمانية في أوروبا يوم فصلوا الدين عن الدولة ، إلى غير ذلك من هذه المهاترات التي تحتاج إلى فرسان في كل ميدان ، يذبون عن دين الله، ويقيمون الحجة على الناس ، فانتبه أيها المتفقه فلست بمعزل عن عصرك وإقليمك .

كيف يمكن تنمية هذه الملكة ؟

إذا كان تكوين الملكة الفقهية يحتاج إلى أركان ثلاثة : المتفقه والمعلم والمنهج ، فإن تنمية هذه الملكة لتحصل على أتم وجه يحتاج إلى الممارسة العملية ، ووضع المتفقه أمام مشكلات عصره ، ومحاولة تقويم طريقته في علاج تلك المشكلات .

فبعد أن مر بفترة من التأهيل النظري نحتاج إلى وضعه في مواجهة الواقع ، كأن تربى عنده ملكة الاجتهاد الجزئي **بتكليفه ببحث مسألة من المسائل** ، ودراستها دراسة متأنية ، وهنا نقف على مدى إمكانياته ، ولا يتم ذلك قبل التأهيل ، أعيد ذلك وأكرر ؛ لأننا نعاني في هذا الزمان من قلة الصبر ، واستعجال قطف الثمار قبل نضوجها .

من الأمور التي تنمي الملكة عنده أيضا ، **تعويده الموازنة بين المصالح والمفاسد** .

فيعرف المصلحة الشرعية المعتبرة ومتى يقدمها ، ومتى يدرأ المفسدة قبل جلب المصلحة ، هذه تطبيقات فقهية لازمة ، وله

أن يستأنس بكتاب " قواعد الأحكام في مصالح الأنام " للعز بن عبد السلام ، و" ضوابط المصلحة " للبوطي

كذلك **تعويده طرق الجمع بين الأدلة** التي تبدو مختلفة عند الوهلة الأولى ومن أفضل ما يستعين به في ذلك كتاب " تأويل مختلف الحديث " لابن قتيبة .

كذلك **تعويده الحوار الفقهي وقراءة المناظرات الفقهية** التي تقوي الملكة عنده ، ولكن يحذر هنا من التعصب أو الجدل البيزنطي الممقوت ، بل يناقش بدليل ، لا ينتصر لمذهب إلا سنة المصطفى ﷺ، ولا ينتقص من مخالف بل يقول دائما : قولي صواب يحتمل الخطأ ، وقول مخالفي خطا يحتمل الصواب .

ومما يقوي الملكة عنده **الرحلة إلى العلماء ، والاستكثار منهم**، فكلما زاد شيوخه اتسع علمه .

آفات الملكة الفقهية

وحذار ثم حذار من معوقات تشل هذه الملكة ، فتنقض غزلك من بعد قوم أنكاثا ، وهي تنقسم إلى :

- آفات خلقية ونفسية .
- وآفات منهجية .

فأما الآفات الخلقية والنفسية فمن ذلك :

أولا : الكبر والعجب

فإنه داء يصيب كل متعلم لم يخلص وجهه لله من بادئ أمره ، و" الكبر بطر الحق وغمط الناس " ولا يزول ذلك إلا إذا عرف المرء حقارة نفسه ، ولعله يحتاج هنا إلى المربي ليقوم اعوجاجه ، ومن ثم قلنا بالصبر على ذل التعلم لأنه أفيد شيء للمتعلم لو كان يدري .

فلتحذر من رؤية النفس ، كأن تناظر للغلبة لا لمعرفة الحق ، وكتحصيل علوم تتجمل بها في المحافل ، والتعالي على الأقران ونحوه مما يضيع العلم ويثير الأحقاد .

ثانيا : الغرور

وهو أن تسكن النفس إلى ما يوافق هواها وتميل إليه بطبعها ، والمغرور يتحدث عن نفسه دائما ، بل ربما يظهر نفسه بإلحاق التهم بأقرانه ، والغرور يحجب طالب العلم عن الزيادة في الطلب فيظن أنه قد انتهى إلى ما لن يصل إليه غيره ، ويمنعه من سماع النصيحة، والمغرور يثير حوله من العداوات ما يتلف قلبه فاللهم إنا نعوذ بك من الغرور وأهله .

ثالثاً : الحسد

الذي هو تمني زوال النعمة عن الغير، وهو خلق ذميم ، يفسد الجنان ويردي الإيمان ، والحسد يدب بين خلان الدنيا الذين يطمعون في حطامها الزائل ، أما أهل الآخرة فبمعزل عن ذلك ، والحسود عادة لا يسود ، وينشغل بحاسده عن العلم فتضعف ملكته ، وتسخطه

يزيل عنه العلم ، وينفر الناس منه ، فإياك والحسد فإنه يحلق الديـــن كما يحلق الموسى الشعر .

أما المعوقات المنهجية فمنها :

أولا: الغفلة عن النصوص الشرعية الثابتـــة ، والتفســير الخـــاطئ للنص الشرعي .

وعادة ما يكون ذلك بسبب ما حذرتك منه من التصدر قبل التـــأهل ، والتزبب قبل التحصرم .

ثانيا : التقليد والتعصب والجمود .

وكل منها يؤدي إلى الآخر ، والتقليد هو اتباع الإنسان غـــيره فيمـــا يقول أو يفعل معتقدا الحقيقة فيه من غير نظر وتأمل في الدليـل ، أي أنه يتبع قول غيره بدون حجة أو دليل .

والتعصب حرام ، والجمود يشل ملكات الإنسان ، ويجعله في بوتقـــة لا يتجاوزها فتضعف قدراته .

ثالثا : الالتزام بحرفية النصوص وعدم النظر إلى مقاصد الشريعة

ولذلك فإن الفقه الظاهري عاداه أهل العلم ورأوا فيه انحرافـــا عـــن الجادة ، رغم أن الناظر في كتاب كـــ "المحلى " لابن حزم لا يـــرى سوى نصوص من كتاب ربنا وسنة نبينا وقول صاحب أو تـــابعي ، وهذا كله جيد ، لكن للأسف عدم الأخذ بأصول منهج الســـلف فـــي الاستدلال جعلته يخرج علينا بأقوال شاذة معروفة .

رابعا : الغلو

والغلو يعني انحراف عن الجادة ، فالدين دين سمح لا إفـراط فيه ولا تفريط ، وكم من أراء شذت بسبب موقف متشدد وقفه أحـد أهل العلم فهجره العلماء ، كما فعل نجم الدين الطوفـي الـذي قـدم المصلحة المرسلة على النـص الشـرعي ، وشـهر بذلـك بعـض الرويبضة في هذا العصر حتى يتسنى لهم تبرير الواقع ، ومداهنة من يريدون .

فيا أيها المتفقه ...

هل لنا أن ننشد فيك بغيتنا غدا ، لعلي أحتاج في نهاية المطاف أن أذكرك بأمر يعز بين طلاب العلم الجمع بينه وبين العلم ، مع أنـه الثمرة المرجوة ، وباعث الفتوة ، والأصل الأصيل في رحلتك إلـى الله ، أعني " المنهج " وتلك قاعدة انطلاقك الأخيرة معي ، اسـأل الله أن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين .

المنطلق العاشر

(من أين نبدأ ؟)

المنطلق العاشر

(من أين نبدأ ؟)

قد آذن الركب بالرحيل ومازلت أراك حائرا ، تتعثر خطاك ، تقول : كيف السبيل ؟ كيف أطلب العلم ؟ من أين أبدأ ؟

وإن كان مضى طرف من ذلك عارضا فيما مر فهذا أوان بيانه ، فامض بإذن الله موفقا ، والله أسأل أن يرزقنا الصدق والإخلاص في القول والعمل ، وأن يكتب لنا الصواب ، ويجنبنا الزلل إنه ولي ذلك والقادر عليه .

أيها المتفقه ...

لابد لك من منهجين يمضيان معا ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، منهج في تلقي العلوم الشرعية ، ومنهج في التربية ، فأنت تعلم أن أصول المنهج ثلاثة : التوحيد والاتباع والتزكية .

قال الله تعالى : " **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم**" [البقرة/١٢٩]

وقوله تعالى : " **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**" [آل عمران/١٦٤]

وقال جل وعلا : " **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** " [الجمعة/٢]

فرسالة الأنبياء وورثتهم من بعدهم تتناول تلك الجوانب الثلاثة ، فلابد من علم وعمل ودعوة ، لابد من تزكية للنفوس وشحذ للعقول ، والمنهج الذي لا يراعي هذه الجوانب الثلاثة منهج يجانب الصواب .

منهج للمبتدئين في التربية

أولا : قواعد هامة عامة في أصول المنهج :

١) لقبول العبادة شرطان : الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ

قيل : **(قولوا لمن لم يك مخلصا : " لا تتعن ")** .

فلذلك حرر الإخلاص واجتهد في ذلك واحرص على أن يكون عملك لله وحده لا رياء الناس ، ولا شهوة ، ولا هوى وحظ نفس ، ولا لطلب الدنيا والعلو فيها ، والأمر يحتاج إلى جهاد وصبر ومثابرة .

٢) قال رسول الله ﷺ " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد "[١٦٢]

فلا تتعبد إلا بالوارد عن رسول الله ﷺ وبفهم السلف لأصول العبادات ، ولا تبتدع في دينك ، فالبدعة شر من المعصية .

---

[١٦٢] أخرجه مسلم (١٧١٨) ك الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور .

٣) التدرج أصل في هذا المنهج فأوغل في الدين برفق ، وراع فقه النفس ، ولا تحملها فوق طاقتها فتستحسر وتترك ، ولكن لا يكون التدرج تكأة للتفريط ، ولا مدعاة للكسل ، ولا سبيلا لسقوط الهمة وعدم طلب الأعلى والأكمل والأفضل ، قال ابن الجوزي :

(للنفس حظ وعليها حق ، فلا تميلوا كل الميل ، وزنوا بالقسطاس المستقيم) .

٤) **والصبر أصل آخر** فلا تظن أنك ستجد قرة العين في الصلاة من أول مرة أو تستشعر حلاوة ولذة القيام في البداية أو تجد الخشوع والدموع عند تلاوة القرآن منذ الآية الأولى ، كلا ولا ، فالأمر يحتاج إلى صبر وصدق ومعاناة .

قال بعض السلف : (**عالجت قيام الليل سنة ثم تمتعت به عشرين سنة**) فاصبر سنة وسنوات لتنال الرتب العالية .

٥- المجاهدة والمعاناة أصل مع الصبر والاصطبار .

قال بعض العلماء : (**من أراد أن تواتيه نفسه على الخير عفوا فسينتظر طويلا بل لابد من حمل النفس على الخير قهرا**) وهذا هو الحق المطلوب أن يحمل الإنسان نفسه على الخير حملا .

قال بعض السلف : (**عودوا أنفسكم على الخير فإن النفوس إذا اعتادت الخير ألفته**) جاهد نفسك لعمل الخير ، جاهد نفسك لتحقيق الإخلاص ، جاهد نفسك لتحسين العمل ، جاهد نفسك للارتفاع بمستوى إيمانك ، جاهد نفسك لتكون من المتقين .

٦- تدرب ذهنيا على العبادات قبل أدائها

بمعنى أنك ينبغي أن تقرأ عن الصلاة ، وفضل قيام الليل ، وجـــزاء الصائمين القائمين ، وعاقبة المتصدقين قبـــل أداء هـــذه العبـــادات ، وكذلك قراءة أحوال النبي ﷺ والصحابة والصالحين لتكوين صـــورة لهذه العبادات ذهنيا، واستشعارها قلبيا ، ثم الدخول في هذه العبـــادات بهذا التصور ، فيكون الأمر أسلم وأدعى لتحصيلـــها علـــى أحســـن صورها وأكمل أحوالها .

٧- لا تستخف بقدراتك وكن مستعدا للمجازفة .

إن عدم المجازفة نتيجة الخوف من الفشل عائق للنجـــاح ، إن العبـــد الرباني الذي يعتمد على الله ويتوكل عليه ثم يحزم أمره وينطلق فـــي عمله .

قال الله تعالى : "**وإذا عزمت فتوكل على الله** " [آل عمران/١٥٩]

وقال جل وعلا : " **فإذا عزم الأمر فلـــو صدقـــوا الله لكـــان خـــيرا لهم**"[محمد/٢١]

أنت قوي فتوكل على الله ، وأنت تستطيع الكثير ، ولست أقل ممـــن وصلوا إلى المراتب العليا في العلم والعمـــل ، بقـــي لـــك الصـــدق والتوكل، ثم إذا أخفقت أو فشلت فأعمل فكرك كيف تجنـــب نفســـك الإخفاق مرة أخرى .

٨- اطلب النتيجة لا الكمال .

إن المسلم الحكيم هو الذي يطلب النتيجة الصحيحة عبر مقدماتها الصحيحة دون أن يبالغ في مطلبه ، فينزع إلى اشتراط الكمال في مواهبه ، فإذا وجد قصورا في نفسه ـ وهو لا شك واجد ـ سارع إلى إصلاحه ، واجتهد في تصحيحه ، وليس شرطا أن يصير صحيحا مائة في المائة ، لابد من قصور (**فاستمتع بها على عوج**).

إن الانشغال بتحسين نتائج العمل خير ألف مرة من اشتراط الكمال في الأعمال لأن ذلك مثبط عن الأعمال ودافع إلى الانقطاع والاستحسار .

٨) تكامل الشخصية الإيمانية بتكامل أعمال الإيمان .

قالوا : (**لو أن للنفوس بصمات لكانت أشد اختلافا من بصمات الأصابع**) ومن ثم فليس كل علاج موصوفا يناسب جميع النفوس ؛ وقد علم فاطر النفوس سبحانه أن خلقه هكذا ، فجعل مراضيه سبحانه متعددة ، تناسب إمكانات النفوس وطاقاتها وقدراتها ، فشرع سبحانه الصيام والصلاة ، والذكر والصدقة ، والقرآن وخدمة المسلمين ، وطلب العلم وتعليم الناس ، والحج والعمرة ، كل من هذه العبادات وعشرات غيرها منها فرائض ، ومنها نوافل ، وجعل سبحانه الفرائض بقدر ما لا يشق على النفوس ، ثم فتح الباب في النوافل يستزيد منها من يشاء ، ولا حرج على فضل الله ، فقم بالفرائض فأدها كما ينبغي ، ثم اعمد إلى النوافل فاستزد مما تجد في نفسك رغبة وهمة إليه .

قال الله في الحديث القدسي : "**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه** "[١٦٣] ، فزد في النوافل قدر ما تستطيع ، ولكن لكل نفس بابا يفتح لـها من الخير ، تلج فيه إلى منتهاه .

قال ابن مسعود ﷺ : **أنا لا أصوم ــ يعني النوافل ــ لأن الصوم يضعفني عن الصلاة ، وأنا أفضل الصلاة على الصيام.**

هذا المنهج يناسب ــ إن شاء الله تعالى ــ جميع النفوس ، حاولت أن أستوعب فيه جميع جوانب العبادة ، ولكن إذا وجدت من نفسك همة ونشاطا في جوانب العبادة فاسلكه ، ولا تتوان وزد فيه ، ولا تتأخر لعل الله يجعل فيه زكاة نفسك ، والتزم جميع الجوانب بقدر الإمكان ، فإنها مكملات لشخصيتك الإيمانية .

١٠- المتابعة أم المداومة والاستمرار أبو الاستقرار .

لابد لشيخ متابع ، أو أخ كبير معاون ، أو على الأقل زميل مشارك ، لا تكن وحدك (**فإنما يأكل الذئب القاصية**)[١٦٤] فليكن لك شيخ يتابعك إيمانيا كان رسول الله ﷺ يتابع أصحابه يوميا فيقول :

---

[١٦٣] أخرجه البخاري (٦٥٠٢) ك الرقاق ، باب التواضع.

[١٦٤] أخرجه أبو داود (٥٤٧) ك الصلاة ، باب التشديد في ترك الجماعة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٠١) .

(من أصبح منكم اليوم صائما ، من أطعم اليوم مسكينا ، من عاد اليوم مريضا) [١٦٥]

وقد أمره ربه بذلك في أصل أصول التربية فقال :

" **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم** " [الكهف/٢٨] فابحث لك عن شيخ وبالإخلاص ترزق ، وابحث عن أخ كبير تستشيره ، فهو ذو خبرة سابقة تنفعك ، وائتلف مجموعة من الإخوة الأقران يكونون عونا لك على طاعة الله ورسوله ، فتكونون " **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** " [الفتح/٢٩]

١١- لا تمنن تستكثر

اعلم – أخي – رزقني الله وإياك الإخلاص في القول والعمل ، والسر والجهر، أن التحدث بالعمل لا تخلو من آفات ، فإما أن يكون إظهار العمل للرياء والفخر والسمعة فيحبط عملك أو تحسد .

فالإيمان يتعرض للحسد فتحصل الانتكاسة ، فاكتم عملك ، وأسر بقرباتك ، ولا تحدث بطاعاتك تسلم .

ونصيحة أخرى : أنك لا تدري أي أعمالك حاز القبول ، ونلت به الرضا ، فمهما كثر عملك فلتكن على وجل خوف الرد وعدم القبول،

---

[١٦٥] أخرجه مسلم (١٠٢٨) ك الزكاة ، باب من جمع الصدقة وأعمال البر .

أو حذر الحسد ، وإفساد الأحوال ، ولا تفتر فتهلك ، نعوذ بـــالله مـــن تكدير الصافي ، ونسأل الله السلامة والمسامحة .

المنهج

أولا : القرآن الكريم

قال بعض السلف : **كل ما شغلك عن القرآن فهو شؤم عليك .**

اعلم أن القرآن العظيم كلام الله تعالى من أكبر عوامل التثبيت علـــى الإيمان .

قال رسول الله ﷺ: " **أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجـــال، ثـــم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة** "[١٦٦]

وتلاوة القرآن من أفضل القربات

قال رسول الله ﷺ: " **اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامـــة شـــفيعا لأصحابه** " [١٦٧].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه (**إن الله أنزل هذا القرآن ليعمل بـــه فاتخذوا تلاوته عملا**) ولذلك اجتهد في تلاوة القرآن ليلك ونهارك .

وهاك منهجك في تلاوته :

---

[١٦٦] متفق عليه . أخرجه البخاري (٧٠٨٦) ك الفتن ، باب إذا بقي في حثالة من الناس ، ومســـلم (١٤٣) ك الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب.

[١٦٧] أخرجه مسلم (٨٠٤) ك صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة .

١- **التلاوة أهم من الحفظ** ، والجمع بينهما هو المتحتم لمن يريد التربية .

٢- **ختم المصحف كل جمعة هو هدي السلف رضوان الله عليهم أجمعين** ، وذلك بأن تتعود أن تقرأ جزءا من القرآن كل صلاة فريضة ، إما قبلها ، وإما بعدها ، أو يتم قسمته ما بين الصلاتين ، تبدأ من عصر الجمعة ، وتنتهي عصر الخميس من كل أسبوع ، ولليلة الجمعة وظائفها .

إن لم تستطع فعلى الأقل جزأين كل يوم في الصباح جزء وفي المساء مثله ، أدنى الأحوال أن تقرأ جزءا كل يوم فلك كل شهر ختمة وهذا فعل ضعيف الهمة فلا تدم عليه وإنما زد وردك بالتدرج لتختم كل أسبوع .

٣- **عند التلاوة اجتهد في التدبر وذلك يحصل بالآتي :-**

أ- حضور القلب عند التلاوة وتفريغه من الشواغل بقدر الإمكان .

ب- استشعار أن القرآن كلام الله العظيم فاخشع .

ج- اجمع أهلك على التلاوة معك حتى ولو في بعض ما تتلو وتدارس معهم القرآن .

د - الأمر يحتاج إلى صبر فليس من أول مرة يحصل لك الخشوع فلا تعجل واصبر ولا تجزع

ه - مصحف يشتمل على معاني الكلمات على الأقل فتنظر فيما تريد فهمه .

و – لابد من حفظ القرآن فهو من فروض الكفايات ولذلــــك طــرق منها:

* تعلم القرآن على يد شيخ متقن ولو بالأجر فالقرآن أغلى .

* استشر أهل الخبرة في كيفية حفظ القرآن وطـــالع بعــض الكتــب المهمة في ذلك .

* لابد من التسميع اليومي لزوجتك أو أحد أولادك ولا تتكـــبر عــن ذلك ومن التسميع الأسبوعي أو نصف أسبوعي للشيخ .

ثانيا : الصلاة

١- الفرائض :

أ- أصلح صلاة الفريضة أولا بالحرص على صلاة الجماعة فـــي المسجد .

قال رسول الله ﷺ: " **من صلى لله أربعين يوما في جماعة لا تفوتــه تكبيرة الإحرام كتبت له براءتان براءة مـــن النـــار وبــراءة مــن النفاق**"[١٦٨] .

حاول تحقيق هذا الحديث وكلما فاتتك تكبيرة الإحرام فابدأ الأربعيـــن مرة أخرى من الأول .

ب- احرص على الوضوء والوصول إلى المسجد مبكرا فإنـــه مـــهم لصلاح القلب .

---

[١٦٨] أخرجه الترمذي (٢٤١) ك الصلاة ، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولى ، وحسنه الشيخ الألبـــاني فـــي صحيح الجامع (٦٣٦٥)

ج- احرص على الصف الأول خلف الإمام فإنه أدعى للخشوع وحضور القلب .

د- اطرد الشواغل وفرغ قلبك واستشعر حلاوة الإيمان واجعل الصلاة قرة عين لك .

ه- أذكار الصلاة مهمة تدبرها وابحث عن معانيها وافهم ما تقول واستحضر معنى ما تدعو به

و- تدبر ما تتلو من القرآن في الصلاة فإنه أدعى لحضور القلب واجعل قراءتك من المحفوظ الجديد ولا تصل بالعادة بسور محددة تكررها في كل صلاة .

٢- النوافل :

- قال الله في الحديث القدسي " **ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ،ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه**"[١٦٩]

١- استحضر هذا الحديث عن صلاة النوافل لتطلب بها حب الله حتى يعطيك ما تسأل ويعيذك مما تكره .

٢- النوافل حريم الفرض فمن فرط في السنن أوشك أن يفرط في الفريضة ومن حافظ على السنن كانت الفرائض في حماية فأحط فريضتك بسنن تحميها .

---

[١٦٩] تقدم تخريجه قريبا .

٣- النوافل تتمم الفرائض الناقصة

قال رسول الله ﷺ: " من صلى علي صلاة لم يتمها زيد عليها من سبحانه حتى تتم "[١٧٠] **فأتمم النواقص بنوافل كثيرة يتم الله لك .**

٤- السنن الراتبة لا تفرط في شيء منها أبدا

قال رسول الله ﷺ: " من صلى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة بني له بيت في الجنة ، أربعا قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر "[١٧١]

٥- صلاة التطوع كثيرة فأكثر ما استطعت فقد قال الله واسجد واقترب "(العلق ١٩) فكلما سجدت أكثر كان قربك من الله أكثر وصرت عن الدنايا أعلى

قال رسول الله ﷺ: " **عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة** "[١٧٢]

وهاك بعض المستحبات :

ثمان ركعات ضحى : قال رسول الله ﷺ: " **من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين ، ومن صلى أربعا كتب من العابدين ، ومن صلى ستا كفي ذلك اليوم ، ومن صلى ثمانيا كتبه الله من**

---

[١٧٠] أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/١٨) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٣٤٨)

[١٧١] أخرجه الترمذي (٤١٤) ك الصلاة ، باب ما جاء فيمن صلى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة ، وقال : حديث غريب ، وابن ماجه (١١٤٠) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في ثنتي عشرة ركعة من السنة ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٣٦٢)

[١٧٢] أخرجه مسلم (٧٥٣) ك الصلاة ، باب فضل السجود والحث عليه

القانتين ، ومن صلى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتا في الجنة"[١٧٣]

أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها : قال رسول الله ﷺ : "من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حرمه الله على النار"[١٧٤]

أربع ركعات قبل العصر : قال رسول الله ﷺ: رحم الله امرأ صلى قبل العصر أربعا "[١٧٥].

ركعتين قبل المغرب وركعتين قبل العشاء : قال رسول الله ﷺ:
" بين كل أذانين صلاة قالها ثلاثا قال في الثالثة : لمن شاء "[١٧٦]

٣- القيام :

وما أدراك ما القيام ، إن لقيام الليل أسرار . إنه إعداد للرجال .. إنه يثبت القلوب على الحق ويزيدها قوة إلى قوتها ، إنه سر فلاح العبد ، يبعد عن الخطايا والذنوب ويزيد الإيمان ، يلحق العبد بالصالحين ،

---

[١٧٣] أخرجه الطبراني في الصغير (١٨٢/١) وقال الهيثمي في المجمع (٢٣٧/٢) : رواه الطبراني في الكبير ، وفيه موسى بن يعقوب الزمعي وثقه ابن معين وابن حبان ، وضعفه ابن المديني وغيره وبقية رجاله ثقات .

[١٧٤] أخرجه الترمذي (٤٢٨) ك الصلاة ، وقال : حسن صحيح غريب ، وابن ماجه (١١٦٠) ك إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فيمن صلى قبل الظهر أربعا وبعده أربعا . وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٣٦٤)

[١٧٥] أخرجه الترمذي (٤٣٠) ك الصلاة ، باب ما جاء في الأربع قبل العصر ، وقال : غريب حسن ، وأبو داود (١٢٧١) ك الصلاة ، باب الصلاة قبل العصر . وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٣)

[١٧٦] أخرجه مسلم (٨٣٨) ك صلاة المسافرين وقصرها ، باب بين كل أذانين صلاة .

ويبلغه مرتبة القانتين المحسنين يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه .

قال رسول الله ﷺ: " **إن في الجنة لغرفا ، يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها**

فقام إليه أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟

قال : **هي لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى لله بالليل والناس نيام** " [١٧٧]

وقال ﷺ: " **عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى ربكم ، ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم** "[١٧٨]

وهاك طريقة التدرج في القيام :

*- ركعتين على الأقل في جوف الليل وليس الطول شرطاً لهما ولابد من القراءة من المحفوظ من القرآن .

*- في اليوم الثاني مباشرة لا تتكاسل ولا تفرط اجعلها أربعاً واجتهد في التدبر لتشعر بحلاوة الإيمان .

*- وبعد أسبوع اجعلها ستاً ثم ثمانية غير الوتر .

*- ابدأ بعد ذلك بتطويل الركعات حتى ولو بالقراءة من المصحف .

*- استشعر حال قيام الليل الأنس بالله والخلوة معه سبحانه .

---

[١٧٧] أخرجه الترمذي (٢٥٢٦) ك صفة الجنة عن رسول الله ، باب ما جاء في صفة غرف الجنة ، وقال : حديث غريب ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١٢٣)

[١٧٨] أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) ك الدعوات عن رسول الله ، باب في دعاء النبي ، وقال : حديث غريب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٩٧) .

*- لعدم الملال المسبب للترك لا تجعل صلاتك على وتيرة واحدة كل ليلة :

فليلة أوتر بخمس ، وليلة أخرى أوتر بثلاث ، وليلة أوتر بسبع ، وليلة طول القيام مع عدد ركعات أقل ، وليلة لطول السجود ، وليلة لتكثير الركعات وتخفيف الصلاة .وهكذا

*- إذا فاتك القيام بالليل اقضه بالنهار .

٤- **الصيام :**

أ- صيام الاثنين والخميس والثلاثة أيام البيض من كل شهر مدرجة لخير الصيام .

ب- إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولا تجعل يوم صومك كيوم فطرك ففي الصيام احفظ لسانك وليكثر ذكرك لله وليظهر على سمتك الخشوع والوقار والإخبات وإياك والمعاصي فيفسد الصيام .

ج- احرص على السحور متأخراً وعجل الإفطار .

د- احرص على أن يصوم معك أهل البيت وشجعهم على ذلك واجتمعوا على الإفطار والسحور .

ه- احرص على إفطار الصائم : ادع غيرك إلى الصيام وفطر الصائمين .

و- استشعر المعاني الإيمانية أثناء الصيام من إقامة حاكمية الله على النفس الأمارة بالسوء فتعود أمة مأمورة غير آمرة ومطيعة غير

مطاعة ، وأيضا استشعار ذل الفقر والحاجة والضعف والفاقة ، وأيضا استشعار نعمة الله في المطعم والمشرب .

٥- الاعتكاف :

مع ضجيج الحياة وكثرة صخبها مع المادية القاتلة التي تطحن الناس بين رحاتها مع ضرورة الاختلاط بالناس يتكدر القلب ويتعكر صفو النفس فنحتاج إلى هدوء وراحة فلابد لها من عزلة وخلوة ولذلك يلزمك أخي طالب التربية إلى اعتكاف يومي فأخذ لنفسك الأنسب لحالك ولا تفرط : إما بين المغرب والعشاء يوميا وإما بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس كل يوم

وفي هذا الاعتكاف اليومي لابد لك من أمور :

١- استصحب النية أولا وارج ثواب الله .

٢- ذكر الله هو الأصل في هذه الجلسة واستشعر أن جليسك الله ، قال تعالى في الحديث القدسي : " أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه "[١٧٩] فاجلس بالرغبة والرهبة .

٣- من آداب هذه الجلسة : ألا تلتفت ، ولا تنشغل بغير ذكر الله ، وليتعود الناس منك ذلك ، ألا تكلم أحدا ، ولا تسلم على أحد ، ولا تشارك في شيء ، بل هذه خلوتك .

---

[١٧٩] أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) ك الأدب ، باب فضل الذكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٦) .

وقد يكون هذا الاعتكاف في مسجد لا يعرفك فيه أحد ، أو إذا تعذر الأمر فاجعل لك خلوة في بيتك ساعات كل يوم ، حيث لا يراك أحد ، ولا يشغلك شيء .

٤- المحاسبة اليومية من أهم أعمال هذه الخلوة ، فالزم نفسك المحاسبة ، والتزم بالكلمات الخمس :

*- المشارطة : أن تشترط على نفسك صبيحة كل يوم أن تسلمها رأس المال وهو العمر (٢٤ ساعة) ، والأدوات : وهي القلب والجوارح ، وتشترط عليها أن تضمن لك بذلك الجنة بالأعمال الصالحة آخر النهار .

*- المراقبة : أن تراقب نفسك طيلة اليوم ، فإن همت بمعصية ذكرتها بالمشارطة ، وإن توانت عن طاعة زجرتها بالمشارطة .

*- المحاسبة : أن تستعرض شريط يومك نهاية كل يوم ، وبالورقة والقلم يتم حساب الخسائر والأرباح ، ومعرفة مصير المشاركة مع النفس .

*- المعاتبة : أن يحصل عتاب على التقصير .

*- المعاقبة : أن يتم العقاب على الذنوب والغفلة ، فتعاقب نفسك بحرمانها من بعض شهواتها ، وإلزامها بزيادة قرباتها ، بذلك تنجو من شرها ، وتقودها سالمة إلى ربها ، والله المستعان .

اعتياد هذا الاعتكاف بهذا البرنامج يوميا يؤدي إلى تلافي الأخطاء ، وإصلاح الأحوال فاصبر ، والزم تلتزم .

٦- الذكــر .

قال الله تعالى : " **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** " [آلعمران/١٩١]

وقال جل وعلا : " **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** " [الرعد/٢٨]

وقال رجل لرسول الله ﷺ: " **دلني على عمل أتشبث به قال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله** "[١٨٠] .

وفي الكلمات الخمس التي أمر الله بها يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ أن يعمل بها ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن : " **وآمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا ، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله** "[١٨١] .

الذكر نجاه ، ذكر الله بركة ، ذكر الله هداية ، ذكر الله نعمة ونعيم ، وقرة عين ، وأنس روح ، وسعادة نفس ، وقوة قلب ، نعم ذكر الله روح وريحان ، وجنة نعيم .

- عود لسانك : رب اغفر لي فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلا .

---

[١٨٠] أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) ك الدعوات عن رسول الله ، باب ما جاء في فضل الذكر ، وقال : حسن غريب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٠٠) .

[١٨١] أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) ك الأمثال عن رسول الله ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ، وقال : حسن صحيح ،

- الأذكار الموظفة في اليوم والليلة افرضها على نفسك فرضا ، وعاقب نفسك على التفريط في شيء منها ، وهي أذكار دخول البيت والخروج منه ، وكذا المسجد وكذا الخلاء ، وأذكار الطعام والشراب واللباس ، والوضوء والصلاة والنوم والجماع ، وأذكار الصباح والمساء .
- احمل في جيبك المصحف ، وكتاب حصن المسلم ، ولا تفرط فيهما أبدا .
- احفظ الأذكار ، وراجعها دائما على الكتاب ، واسأل عن معناها ، وافهم ما تقول .
- كثرة الصلاة على النبي ﷺ بلا عدد محصور تزيل الهم .
- كثرة الاستغفار تزيد القوة .
- الباقيات الصالحات : " سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " **خير ثوابا وخير أملا** .
- التهليل قول : " لا إله إلا الله " حصن حصين من الشيطان ، والحوقلة قول : " لا حول ولا قوة إلا بالله " كنز من كنوز العرش.
- سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ثقيلتان في الميزان .

عموما قال الله تعالى : " **فاذكروني أذكركم** " [البقرة/١٥٢] فاذكر الله يذكرك ، ولا تنسه فينساك.

عبودية المال

المال فتنة ، قال رسول الله ﷺ: " **لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال** "[١٨٢]

ونحن في زمن الماديات ، وصراع الناس على الكماليات ، وهموم الناس الدنيئة التي خربت قلوبهم وعلاقتهم بربهم في زمن التعاسة قال رسول الله ﷺ: " **تعس عبد الدرهم والدينار** "[١٨٣] .

في هذا الزمن الحرج يحتاج الإنسان إلى التخلص من ربقة المادية الطاغية ؛ وذلك ببذل المال ، قال تعالى : " **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** " [الحشر/٩]

وقال رسول الله ﷺ: " **الصدقة برهان** "[١٨٤] أي دليل على حب صاحبها لله .

فهيا ــ أخي طالب التربية ــ لتربي نفسك على الزهد في الدنيا :

*- ألا يكون للدنيا أي قيمة في قلبك ، فهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، فلا تفرح بإقبالها ، ولا تحزن على إدبارها ، ولتستو عندك الحالتان ؛ لأنك عبد للمعطي المانع قال تعالى : " **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور** " [الحديد/٢٣]

---

[١٨٢] أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) ك الزهد عن رسول الله ، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال ، وقال : حسن صحيح غريب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٤٨) .

[١٨٣] جزء من حديث ، أخرجه البخاري (٢٨٨٧) ك الجهاد والسير ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله .

[١٨٤] أخرجه مسلم (٢٢٣) ك الطهارة ، باب فضل الوضوء .

قيل للإمام أحمد بن حنبل : الرجل يملك ألف دينار ويكون زهدا !! قال : نعم . قيل : كيف ؟! قال : إذا لم يفرح إذا زادت ، ولم يحـزن إذا نقصت .

المنهج في طلب العلوم الشرعية

أيهـا المتفقـه ..

كثير من طلبة العلم يخبط خبط عشواء بسبب افتقاده للمنهجية في التعلم ، فهو لا يعرف ماذا يدرس ؟ بماذا يبدأ ؟ ما هي الكتب التي عليه أن يقتنيها ؟

والأمر سهل ميسور – بإذن الله تعالى – فإن سلفنا الصالح قد قيدوا في ترتيب العلوم مصنفات لبيان هذه المسالة .

ولابد أن تعرف قواعد السير حتى لا يتعثر جوادك :

أولا : العلم كثير ، والعمر قصير ، فلا تشتغل بمفضول عن فاضل ، ولا تتعد .

ثانيا : خذ من كل علم بطرفه بادئ الأمر ثم ترق في الدرجات .

ثالثا : علومنا كل واحد فلا تركن لجانب دون الآخر .

رابعا : علومنا منها علوم وسائل ، ومنها علوم ثمرات ، فابدأ بالبذر ، واصبر في زمان السقي ، وارتقب حصول الثمرة لتحصدها.

خامسا : لابد من المنهجية والمرحلية ، فلكل علم ثلاث مراتب : اقتصار ، واقتصاد ، واستقصاء .

فهن ثلاث : للمبتدئ ، والمتوسط ، والمنتهي .

ولا يجوز بحال أن تأخذ ما جعل لمن هو أرقى منك درجة ، وإلا بنيت من غير أسس صحيحة ، وتلك آفة التسرع والعجلة ، فلا تعجل .

سادسا : قدم فروض الأعيان على فروض الكفايات على المندوبات، وإياك ومكروه ناهيك عن حرام .[185]

سابعا : لابد من متابع دليل يأخذ بيدك ، يبصرك بمفاتيح العلوم ، ومداخل الكتب ، لتنأى عن شبهة " تصحيف " أو " تحريف " ، ولابد أن يكون دليلك سلفي المنهج لتتربى بعيدا عن التأويلات الباطلة والآراء الشاذة المنكرة .

ثامنا : لكل علم وفن مصطلحاته ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، فاحرص على اقتناء معاجم المصطلحات ، واجعل لكل علم دفترا عندك ، ودون فيه كل مصطلح جديد .

تاسعا : لا يمر بك يوم دون تحصيل ، فوقتك رأس مالك ، والعلماء أبخل الناس بزمانهم

الوقت أنفس ما عنيت بحفظه   وأراه أسهل ما عليك يضيع

عاشرا : الكتاب خير جليس ، وأفضل أنيس ، فلا تقرا قراءة الغافل، بل حادثه وحاوره ، لا تكن كالإسفنجة تتشرب كل شيء ، بل كن كالقارورة المصمتة ، تبصر من وراء حجاب .

---

[185] مما يحرم تعلمه السحر والموسيقى ، وكذلك الفلسفة في قطر لم تفش فيه ، فإن فشت تعلمها المضطر لاستدفاع ضررها عن الناس ، وبيان خطرها ، ورد قالة السوء ، ومنها تعلم القوانين الوضعية للحكم بغير ما أنزل الله ، والقاعدة شهيرة : الوسائل تأخذ حكم المقاصد ، فكل ما أدى إلى حرام فهو حرام ، كمن يتعلم صناعة الخمور أو السجائر ، أو المعاملات الربوية الخبيثة في البنوك وشركات التأمين ، فكل ذلك حرام تعلمه فضلا عن العمل به .

الجدول العلمي في كل فن

تنبيهات :

١)ما يذكر من الكتب ليس ملزما فقد يكون هناك كتابا آخر على نفس المستوى والشاكلة ، فاستنصح من خبير بالفن ليدلك .

٢) عليك باقتناء الطبعات المحققة لاسيما لأئمة المحققين كالشيخ / أحمد شاكر ، والشيخ / الألباني ، والشيخ/ محمود شاكر ـ رحمهما الله ـ والأستاذ / عبد السلام هارون ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم وغيرهم فاستبصر .

أولا : القرآن الكريم .

- **حفظه .**

قال أهل العلم : أول العلم حفظ القرآن . فلابد أن يبدأ طالب العلم بحفظ القرآن الكريم كاملا ، نعم حفظ القرآن فرض كفاية على الجملة، لكنا نقول بتعينه على طلبة العلم الملتزمين في عصرنا ، فإذا تقاعس هؤلاء فمن يسد الثغرة ويكف عن الأمة ؟

١) ومن أقرب الوسائل لذلك إدمان التلاوة ، واستغلال الأوقات المباركة كالسحر والبكور ، والتزام طبعة واحدة من المصحف لترتسم في مخيلتك صورة تتابع الآيات في الصفحة ، ودوام المراجعة في أداء نوافل الصلاة والقيام والسير في الطرقات ، وغض البصر فإنه من أكثر المعينات لحفظ العلوم كافة .

٢) تأدب بآداب حفظ القرآن ، واقتن في ذلك ، " التبيان في آداب حملة القرآن " للإمام النووي ـ رحمه الله ـ

٣) استثمر سني الحفظ الذهبية (حتى الثالثة والعشرين من عمرك)، ومن فاتته فلا ييأس ، فالموفق من وفقه الله تعالى ، واستعن بالله ولا تعجز

تنبيه

من الكتب النافعة في مسألة حفظ القرآن .

القواعد الذهبية في حفظ القرآن الكريم للشيخ /عبد الرحمن عبد الخالق .

عون الرحمن في حفظ القرآن للشيخ / أبو ذر القلموني .

- أحكام التلاوة والتجويد .

لابد من المشافهة في تعلم هذا العلم .

اتقن قراءة من القراءات كحفص عن عاصم ،

ابدأ : بمتن تحفة الأطفال فاحفظها

ومن شروحه :

فتح الأقفال شرح متن تحفة الأطفال للناظم سليمان الجمزوري[186]

المنح الفكرية شرح تحفة الأطفال الشيخ / أسامة عبد الوهاب .

---

[186] طبع بمكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالأزهر الشريف .

ثن : بحفظ متن الجزرية .

ومن شروحه

" فتح المريد في علم التجويد " عبد الحميد يوسف منصور .

وانته : بهداية القاري إلى تجويد كلام الباري للشيخ عبد الفتـاح السيد عجمي المرصفي

- علوم القرآن

ابدأ بـ : لمحات في علوم القرآن . محمد الصباغ .

مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح أو منـاع القطان .

ثن بـ : التبيان لبعـض المبـاحث المتعلقـة بـالقرآن طـاهر الجزائري.

ثم : الإتقان في علوم القرآن السيوطي .

وانته بـ : البرهان في علو القرآن الزركشي .

- أصول التفسير

ابدأ بـ : رسالة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ثن بـ : بحوث في أصول التفسير محمد الصباغ .

وأخيرا : قواعد التفسير جمعا ودراسة خالد بن عثمان السبت فإنه جيد في هذا الباب .

• <u>كتب التفسير</u>

من الكتب التي أرخت تأريخا طيبا لحركة التفسير " كتاب التفسير والمفسرون " للشيخ / محمد حسين الذهبي ، وهو كتاب جيد على الحقيقة .

أما كتب التفسير ذاتها

فابدأ بـ : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن السعدي ثم : تيسير العلي القدير مختصر تفسير ابن كثير نسيب الرفاعي

أو عمدة التفسير (لكنه لم يكتمل) أحمد شاكر

ثن بـ : محاسن التأويل القاسمي

انته : جامع البيان لابن جرير الطبري

<u>ثانيا : علوم السنة</u>

١) لا تشتغل بالحديث قبل حفظ القرآن وأخذ نصيبكِ منه .

٢) لا تعمد إلى الاشتغال بفروع تخصصية قد سدها غيرك ، فتشتغل بمفضول عن فاضل .

٣) الحديث بحر لا ساحل له فالنهل من السنة تفنى الأعمار دون الإتيان على آخره .

٤) لابد أن تكون لك حصيلة ضخمة من الأحاديث النبوية تتكاثر مع الوقت ، فالسنة لواؤك ، وبها يقوم منهجك .

دواوين السنة

ابدأ بـ : الأربعين النووية فاحفظها

واستأنس بشرحها المبارك " جامع العلوم والحكم " لابن رجب الحنبلي وقد زاد عليها .

ثم : عليك بـ " رياض الصالحين " فإنه كتاب مبارك ، كتاب منهج ، سلفي محض .

واستأنس بشرحه " نزهة المتقين شرح رياض الصالحين " في مجلدين لمجموعة من العلماء ، ولشيخنا ابن عثيمين شرح حديث عليه فاقتنه .

ثم : " الترغيب والترهيب " للمنذري ، وقد خرج تحقيق الشيخ الألباني لجزء منه .

ثم : عليك بالكتب الستة :

قال بعض شيوخنا : لا يجاوز طال العلم الخامسة والعشرين إلا وقد أتى على الكتب الستة قراءة وفهما ، فعليك بـ :

صحيح البخاري مع شرحه الماتع " فتح الباري " .

صحيح مسلم مع شرح الإمام النووي له .

جامع الترمذي وشرحه " تحفة الأحوذي " للمباركفوري .

سنن أبي داود وشرحه " عون المعبود " لشمس الدين آبادي .
سنن النسائي وشرح السيوطي عليه .
وسنن ابن ماجه وشرح السيوطب عليه أيضا .
واستأنس في السنن الأربعة بجهود العلامة الألباني ــ رحمه الله ــ في تصحيحها وتضعيفها .

ثم تنتهي بمرحلة " المعاجم والمسانيد والمصنفات " كمعاجم الطبراني الثلاثة ، ومسند الإمام أحمد ، ومسند البزار ، ومسند أبي يعلى ، ومصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة .

ولا يفوتك " الجامع الصغير وزياداته " للسيوطي ، مع تحقيق الشيخ الألباني في " صحيح الجامع الصغير " و " ضعيف الجامع " فإنه كتاب لا يخلو منه بيت داعية ولا طالب علم فضلا عن عالم ، ويمتاز بسهولة وقصر أحاديثه فيمكنك حفظ طائفة هائلة من " صحيح الجامع " تكون حصيلة جيدة لك .

والكتاب مرتب على حروف الهجاء ، وقد رتبه الأخ / عوني نعيم الشريف على الموضوعات ، وخرج في أربعة مجلدات باسم " ترتيب احاديث الجامع الصغير وزياداته " .

- مصطلح الحديث

ابدأ بـ : تيسير مصطلح الحديث محمود الطحان .
واحفظ : البيقونية ، واقتن شرح الشيخ ابن عثيمين عليها .
ثم : نخبة الفكر وشرحها نزهة النظر لابن حجر العسقلاني .

ثم : الباعث الحثيث لابن كثير ، أو قواعد التحديث للقاسمي .
ثم : متن التقريب للإمام النووي ، وشرحه الجامع " تدريب الراوي " للسيوطي .
وأخيرا : ألفية العراقي . وشرحه " فتح المغيث " للسخاوي .
وإن شئت ألفية السيوطي فلا بأس .
وفي علوم الحديث بشكل عام اقتن " مباحث في علوم الحديث " للشيخ/ مناع القطان .

تنبيه

لا بأس أن تتدرب على تخريج الأحاديث بالطريقة المثلى ، بتتبع الطرق والحكم على الأسانيد ، فقط على سبيل الدربة ، ففيها فوائد عظيمة تمكنك من الاحتكاك بكتب السنة ومعرفة مناهجها .
ولا شك أنك ستحتاج في بحثك عن معرفة أصول هذا الفن ، فاقتن :
أصول التخريج محمود الطحان .
التأصيل بكر أبو زيد (خرج منه مجلد واحد فقط) .

ثالثا : علم التوحيد أو العقيدة .

ابدأ بـ : وأرشح لك – أيها المتفقه – بعض الكتب التي تدلك على العقيدة الصحيحة السلفية " **عقيدة أهل السنة والجماعة**."
ابدأ بـ : ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة .

ثم : رسالة " العقيدة الصحيحة " للشيخ ابن باز ــ رحمه الله ــ

ثم : **شرح العقيدة الواسطية** لخليل هراس .

وللشيخ ابن عثيمين مجموعة في (٣٣ شريطا) في شرح الوسطية فاقتنه مع الكتاب .

ثم : احفظ " كتاب التوحيد " لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، وشروحه كـ " فتح المجيد " ، " **وتيسير العزيز الحميد** "

ثم : معارج القبول للحافظ أحمد حكمي .

ثم : شرح العقيدة الطحاوية. لأبى العز الحنفي.

إلى أن تنتهي بكتب سلفنا الرائعة مثل :

السنة . لابن أبي عاصم .

الإبانة . لابن بطة .

شرح أصول أهل السنة والجماعة للالكائي.

وفي بعض المباحث المهمة :

في الولاء والبراء : اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية .

في الاسماء والصفات القواعد المثلى في الاسماء الحسنى للشيخ ابن عثيمين .

العذر بالجهل للشيخ / أحمد فريد .

القضاء والقدر شفاء العليل لابن قيم الجوزية .

مسألة العلو **اجتماع الجيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية،**
وكتاب " **العلو للعلي الغفار** " للحافظ الذهبي ، مع مختصره للشيخ الألباني .
وبالجملة ليكن لك من كتب ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأئمتنا منهلا عذبا ليصفو اعتقادك وفق عقيدة السلف الصالح .

رابعا : الفقه .

تقدم معك رأينا في مسألة تعلم الفقه ، ولذلك فالاختيار أن يبدأ بمتن من المتون الفقهية على مذهب من المذاهب الأربعة المعتبرة
فابدأ بـ :
ففي الفقه الحنفي : " **مختصر القدوري** " المسمى بـ " **الكتاب** " مع شرحه " **اللباب في شرح الكتاب** " للشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني .
ثم " بداية المبتدي " وشرحه " **الهداية شرح بداية المبتدي** " للمرغيناني ، وشرحها " العناية " للبابرتي .
ثم " بدائع الصنائع " للكاساني .
وينتهي بموسوعة الفقه الحنفي " **المبسوط** " للسرخسي ، و" **حاشية ابن عابدين** " المسماه بـ " **حاشية رد المحتار على الدر المختار** "
وفي الفقه الشافعي : " **متن أبي شجاع** " أو يحفظ " **متن المهذب** " للشيرازي .

وفي الفقه المالكي : " **رسالة ابن أبي زيد القيرواني** " المسماه بـ (**باكورة السعد**) أو (**مختصر خليل**) .

وفي الفقه الحنبلي : متن " عمدة الأحكام " لابن قدامة المقدسي ، وشرحه " العدة "

ثم " المقنع " لابن قدامة وشرحه " الروض المربع " .

ثم " الكافي " لابن قدامة أيضا .

وينتهي بـ " المغني " لابن قدامة ، الذي يعد مرجعا مهم في الفقه المقارن ، وأنت ترى أنه في آخر الطريق ، وللأسف الشديد يبدأ به الكثيرون .

لا بأس في مرحلة متقدمة من الاستئناس بـ

" فقه السنة " للشيخ / سيد سابق ، مع تعليقات الشيخ / الألباني في " تمام المنة "

" سبل السلام " للصنعاني .

وعلى طالب الفقه المتقدم متابعة المجلات الفقهية المتخصصة ، وإصدارات المجامع الفقهية العالمية ، كالمجمع الفقهي بمكة ، وفتاوى اللجنة الدائمة بالمملكة العربية السعودية ، وفتاوى دار الإفتاء المصرية ، والقراءة في الأبحاث العصرية للاطلاع على رأي فقهاء العصر فيما يجد .

<u>خامسا : أصول الفقه .</u>

١) لا يتعلم الأصول إلا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى في الفقه ليتصور طالب العلم الفروع الفقهية في البداية ، ثمَّ يتعلم كيفية تأصيل الأصول ، وتخريج الفروع من الأصول .

٢) قد يحتاج طالب العلم إلى دراسة منطقية أو كلامية ليحسن التعامل مع كتب الأصول التي استقت من المنطق والكلام ، فلا ينبغي أن يتعدى طالب العلم ذلك بمعنى ألا يستفيض في دراسة هذه العلوم التي كرهها سلفنا وحذروا منها كما تدري ، وبحمد الله ثم جهود مباركة في تخليص علم أصول الفقه من الكلاميات ، والتركيز علي جانب التمثيل من النصوص الشرعية .

<u>كيف تطلب علم الأصول ؟</u>

ابدأ بـ : " **أصول الفقه** " لعبد الوهاب خلاف أو لأبي زهرة ، أو لأحمد إبراهيم ، ثم للخضري .

ثم : " أصول الفقه " لأبي النور زهير .

ثم : " معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة " لمحمد حسين الجيزاني .

والحنفي المذهب :

عليه بحاشية " التلويح على التوضيح " للتفتازاني .

" والتقرير والتحبير " للكمال بن الهمام .

ومن عداه عليه بـــ : " نهاية السول " للإسنوي الشـــافعي ، " وجمـــع الجوامع " لتاج الدين السبكي .

وتنتهي عند أفضل ما أُلِّف في الأصول ومقاصد الشـــريعة " كتـــاب الموافقات " للإمام الشاطبي .

وفي قضية مقاصد الشريعة لا بأس بكتاب " مقاصد الشريعة " للطاهر بن عاشور أو لعلال الفاسي ، ومن هذا الباب كتاب " مقاصد المكلفين " للدكتور/ عمر الأشقر .

سادسا : علوم اللغة .

١) علوم اللغة متشعبة ، والمجتهد في اللغة مجتهد في الشرع كمـــا قال الشاطبي .

٢) إنما سقمت الأفهام يوم صرنا أعاجم فلا تقل : علوم لغة ، وعلوم شرع ، فعلوم اللغة جزء خطير من علوم الشريعة ، فعليها مـــدار ضبط الأفهام فتنبه .

في علم النحو :

ابدأ بـــ : " الأجرومية " فاحفظها ، واستأنس بشرح " التحفة السـنية " عليها للشيخ / محمد محيي الدين عبد الحميد .

ثم : " قطر الندى " لابن هشام .

ثم : " شذور الذهب " له أيضا .

وفي المرحلة الثانية

ابدأ بـــ : حفظ الألفية وتدرج مع شروحها .

شرح ابن عقيل ، ثم شرح الأشموني ، ثم حاشية الصبان

وفي المرحلة الثالثة

عليك بـــ " مغني اللبيب " لابن هشام ، و " المفصل " لابن يعيش ، وأخيرا " الكتاب " لسيبويه .

في علم الصرف

ابدأ بـــ " **شذا العرف في علم الصرف** "

ثم " **لامية الأفعال** " ، وكثير مما مر ذكره من الكتب النحوية تحوي مباحث علم الصرف المختلفة .

في علم البلاغة

ابدأ بـــ " البلاغة الواضحة " لعلي الجارم

ثم " مقدمة تفسير ابن النقيب " تحقيق د/ زكريا سعيد علي .

ثم " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " كلاهما لعبد القاهر الجرجاني بتحقيق الشيخ /محمود محمد شاكر .

في غريب الكتاب والسنة .

المفردات في غريب القرآن الراغب الأصفهاني .

النهاية في غريب الأثر لابن الأثير

في المعاجم

اقتن " مختار الصحاح " لا يفارقك جيبك .

ثم ابدأ في التعامل مع المعاجم المختلفة بأنواعها :
كالوسيط والوجيز ، ولسان العرب لابن منظور ، والبحـــر المحيـــط للفيروز آبادي .

في الأدب

ابدأ بـــ " حفظ المعلقات السبع " لتكون حصيلة لغوية جيدة .
اقرأ في " خزانة الأدب " للبغدادي ، " صبح الأعشى " للقلقشـــــندي ، **ودواوين أبي الطيب المتنبي وأبي تمام والبحتري وأبـــي العتاهيـــة وغيرهم من الشعراء ، تجنب الرديء المخالف ، والتمس من أشعار الحكمة ما ينفعك .**

أيها المتفقه ..

قد آذن الركب بالرحيل ، وقد بلغت جهدي في نصحك ، فـــهلا شمرت عن ساعد الجد ، واتخذت مـــن تلـــك المنطلقـــات العشـــرة لرحلتك ، عساك أبصرت السبيل ، وقد بقى اليسير من العمل ، كـــي نبلغ فيك الأمل ، فبالله لا تركن فأمتك مقهورة ، والأيدي مقطوعـــة ، والآمال عليك معقودة .

أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما يعلمنا ، وأن يزدينا علما .

وكتبه

محمد بن حسين يعقوب

غفر الله له ولأهله ولمن ساعد في نشر هذا الكتاب

والله تعالى الموفق   والحمد لله أولا وآخرا

كتبه حامدا ومصليا

محمد بن حسين يعقوب

((غفر الله له ولأهله ومن ساعد في نشر هذا الكتاب))

الفهـــــرس